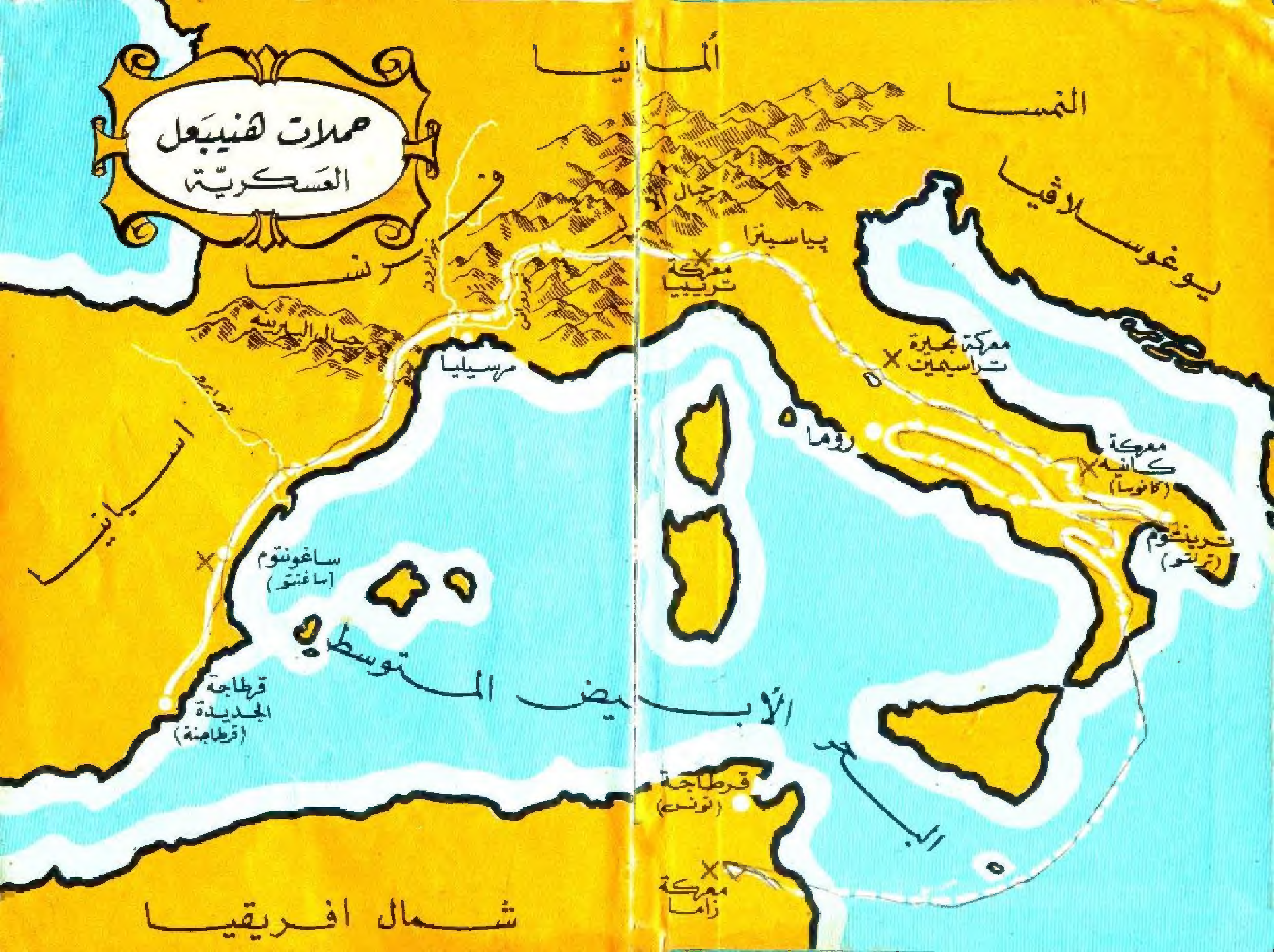
هَنِيبَعل





حملات هنيبعل
العسكريّة
ألمانيا
النمسا
يوغوسلافيا
فرنسا
جبال البرانس
جبال الألب
مرسيليا
پياسينزا
معركة تريبيا
معركة بحيرة تراسيمين
روما
معركة كانيه (كانوسا)
تارينتوم (تارنتو)
اسبانيا
ساغونتوم (ساغنتو)
قرطاجة الجديدة (قرطاجنة)
الأبيض المتوسط
قرطاجة (تونس)
معركة زاما
شمال افريقيا

أَكْثَرُ ٱلنَّاسِ لَا يَعْرِفُونَ عَنْ هَنِيبَعْلَ سِوَى أَنَّهُ ذَاكَ ٱلرَّجُلُ ٱلَّذِي عَبَرَ جِبَالَ ٱلْأَلْبِ بِعَدَدٍ مِنَ ٱلْفِيَلَةِ. غَيْرَ أَنَّكَ فِي هٰذِهِ ٱلْقِصَّةِ سَتَجِدُهُ ٱلْقَائِدَ ٱلْعَسْكَرِيَّ ٱلْمُحَنَّكَ ٱلْمِغْوَارَ ٱلَّذِي كَادَ أَنْ يُرْكِعَ رُومَا وَفَاءً بِقَسَمِ عَدَاوَتِهِ ٱلْأَزَلِيَّةِ لَهَا.

طُبِع في انكلترا

هَنِيبَعْل

تأليف : ل. دو غارْد پيتْش
نقله الى العربية : محمود عارف الاكحل
وضع الرسوم : فرانْك همفريس



الناشرون :
مكتبة لبنان
بيروت
ليديبرد بوك ليمتد
لافبورو
لونغمان
هارلو



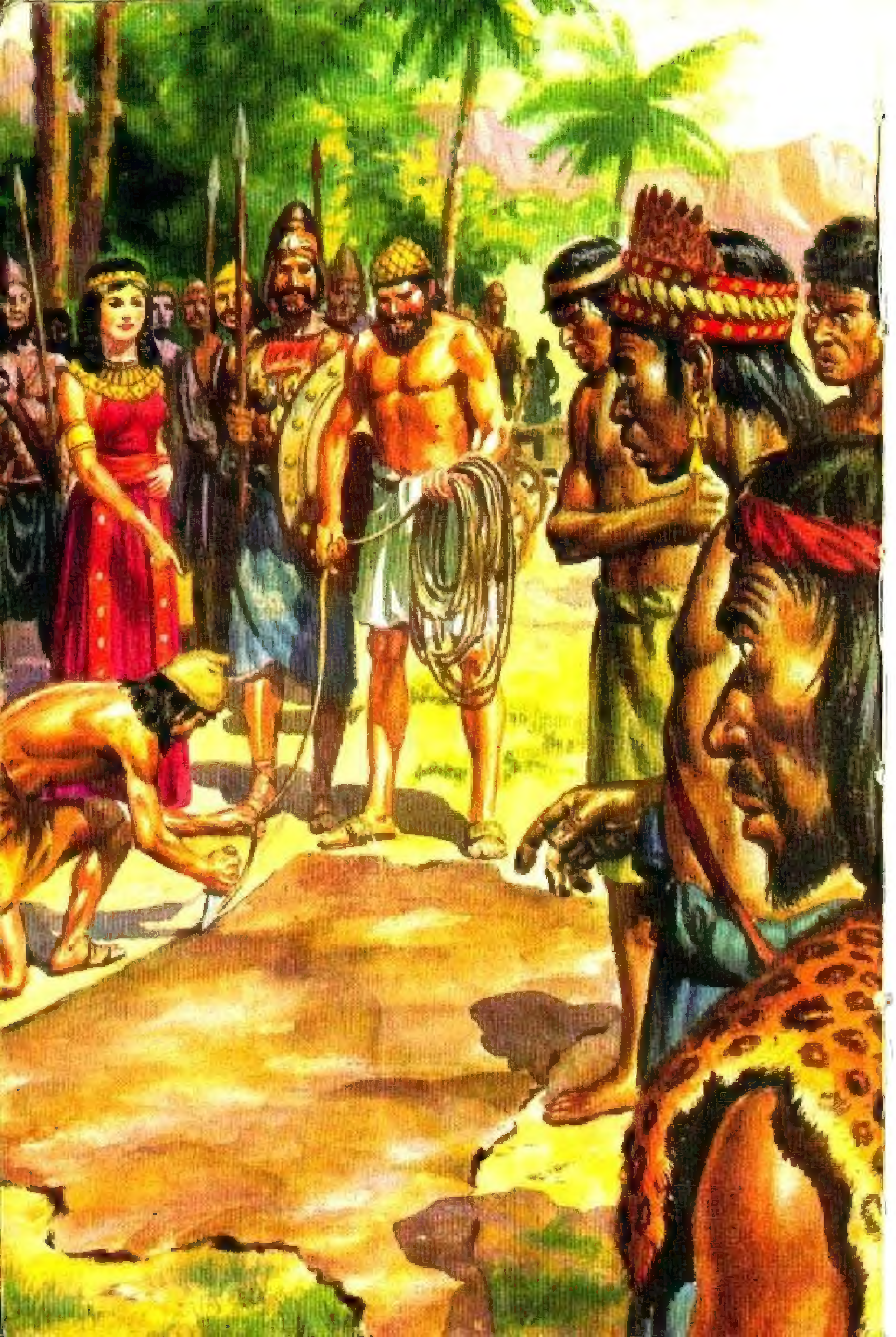
هَنِيبَعْل

كَانَتْ مِصْرُ وَالْيونانُ وَرُوما هي الدُّوَلَ الثَّلاثَ الكُبْرى الَّتِي أَرْسَتْ مُنْذُ أَمَدٍ بعيدٍ أُسُسَ الحَضَارَةِ كما نَعْرِفُها اليَوْمَ. وَكَانَتْ هٰذِهِ الدُّوَلُ قَدْ تَعَلَّمَتْ بِدَوْرِها مِنَ الآخرين الَّذِينَ تَحارَبَت مَعَهُمْ وَتَاجَرَتْ. وَمِنْهُم الفِينِيقِيُّونَ الَّذين كَانُوا مِنَ الجُرْأَةِ والمَهارَةِ بِحَيْثُ أَقْلَعُوا، ولِأَوَّلِ مَرَّةٍ، بِمَراكِبِهِم الصَّغيرَةِ إلى بِحارٍ مَجْهُولَةٍ وَرَاءَ مَضَايِقِ جَبَلِ طارِقٍ الَّتِي سَمَّاها الرُّومَانُ أَعْمِدَةَ هِرَقْلَ.

وَقَبْلَ أَنْ يَغْزُوَ يُوليوسُ قَيْصَرُ بِريطانيا بِزَمَنٍ بَعيدٍ، عَبَرَ الفِينِيقِيُّونَ إِلَى «الكَاسِيتِرايدْس»، أَيْ جُزُرِ القَصْدِيرِ، وَهِيَ إِمَّا بِريطَانيا أو السِّلي (عدد من الجزرِ الواقِعَةِ جَنوبَ غَرْبِ بريطانيا). ولمّا كانوا بَحَّارَةً فَقَدْ تَعَلَّموا الإِفَادَةَ مِنَ المَدِّ وَالجَزْرِ اللَّذَيْنِ لا وُجُودَ لَهُما في البَحْرِ الأَبْيَضِ المُتَوَسِّطِ. وَلَمَّا كانوا تُجَّاراً فَقَدْ قَايَضُوا ما عِنْدَهُمْ بِالقَصْدِيرِ الَّذي كانَ يَنْدُرُ وُجُودُهُ في الشَّرْقِ.

وَدَأَبَ الفِينِيقِيُّونَ، كَسائِرِ البَحَّارَةِ التُّجارِ، عَلَى إِنْشاءِ مَرَاكِزَ تِجارِيَّةٍ حَيْثُما بَدَتِ الفُرَصُ سانِحَةً. فَكَانَتْ هٰذِهِ المَرَاكِزُ مُنْتَشِرَةً حَوْلَ سَوَاحِلِ البَحْرِ الأَبْيَضِ المُتَوَسِّطِ. وكان أحدُها، وهو قَرْطاجَةُ، قد أُقيمَ على ساحِلِ إفْرِيقيا الشمالِيِّ. وبقي قروناً المَرْكَزَ التِّجارِيَّ الرَّئيسَ لِلْبَحْرِ الأَبْيَضِ المُتَوَسِّطِ. وَلِهٰذا لَمْ يَكُنْ بُدٌّ مِنْ وُقوعِ صِدامٍ إِنْ عَاجِلاً أَوْ آجِلاً بَيْنَ هٰذا المَرْكَزِ وَقُوَّةِ رُوما المُتَعَاظِمَةِ.

تَعْتَمِدُ التِّجارَةُ فِيما وَرَاءَ البِحارِ عَلَى المِلاحَةِ. وَسَلامَتُها تَعْتَمِدُ عَلَى السَّيْطَرَةِ عَلَى البِحارِ. وَبَعْدَ أَنْ دَمَّرَ الإِسْكَنْدَرُ الأَكْبَرُ صُورَ سَنَةَ ٣٣٢ (قَبْلَ المِيلادِ) انْتَقَلَتْ سِيادَةُ البَحْرِ إِلَى قَرْطَاجَة.

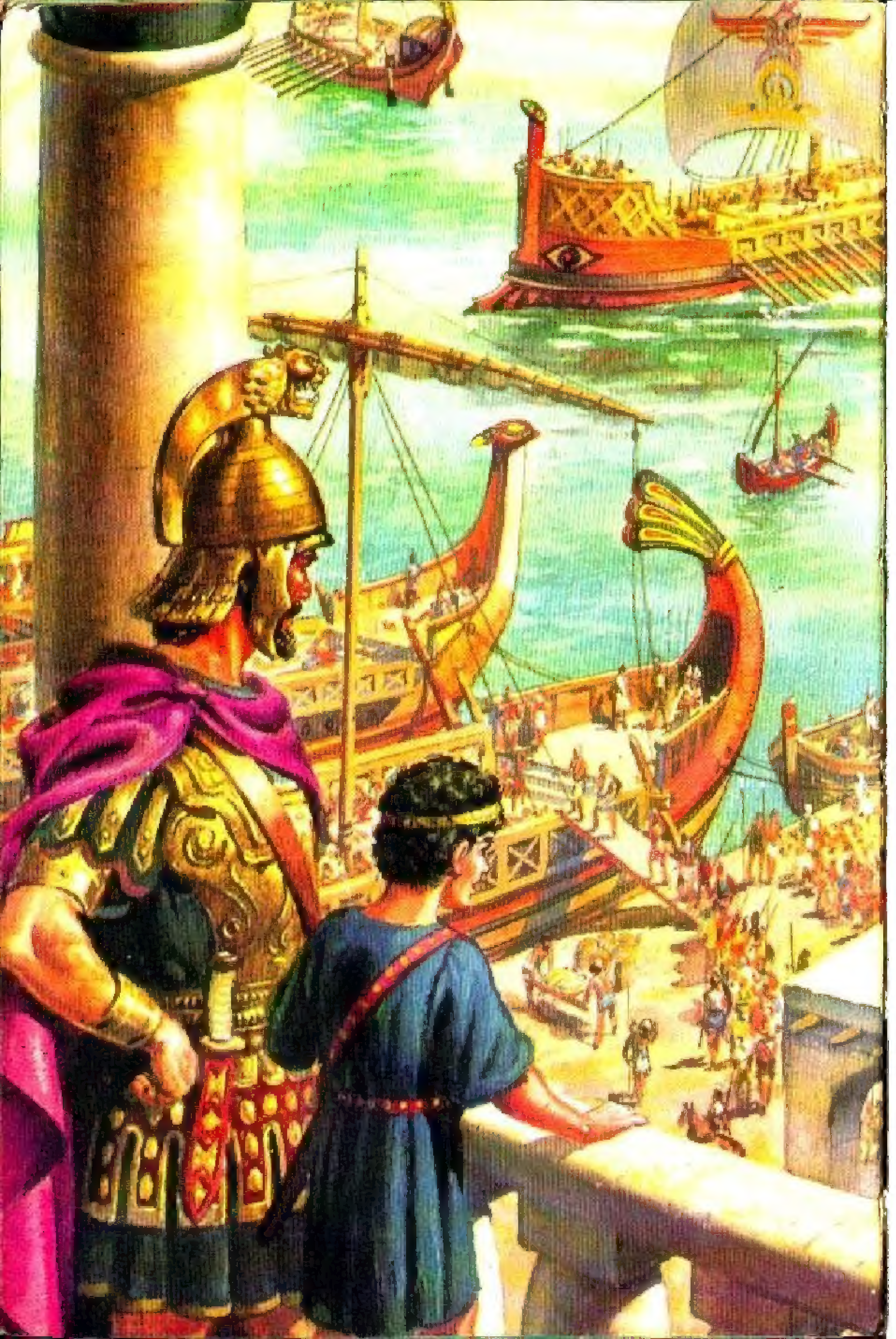


أَنْشَأَ ٱلفِينِيقِيُّونَ مَرْكَزَ قَرْطَاجَةَ ٱلتِّجارِيَّ بَيْنَ ٩٠٠ و ٨٠٠ ق. م. ، أَيْ قَبْلَ حَوالَى ٱلقَرْنِ مِنْ تَأْسِيسِ رُومَا . وَهٰذا يَعْنِي أَنَّهُ حِينَ أَصْبَحَتْ رُومَا مَكاناً لَهُ أَهَمِّيَّتُهُ ، كانَتْ قَرْطَاجَةُ ٱلدَّوْلَةَ ٱلتِّجارِيَّةَ وَٱلبَحْرِيَّةَ ٱلرَّئِيسَةَ في ٱلبَحْرِ ٱلأَبْيَضِ ٱلمُتَوَسِّطِ . وَعَلَى مَرِّ ٱلزَّمَنِ ٱتَّضَحَ لِلقَرْطَاجِيِّينَ أَنَّ أَهْلَ رُومَا ٱلأَشِدَّاءَ قَدْ يُصْبِحونَ مُنافِسِينَ خَطِرِينَ لَهُمْ عَلَى تِجارَةِ ٱلبَحْرِ ٱلأَبْيَضِ ٱلمُتَوَسِّطِ .

وَتُفِيدُ أُسْطُورَةُ إِنْشاءِ مَدِينَةِ قَرْطَاجَةَ أَنَّ عَدَداً مِنَ ٱلمُهاجِرِينَ مِنْ صُورَ مُنِحُوا ٱلحَقَّ في ٱلحُصُولِ على «رُقْعَةٍ مِنَ ٱلأَرْضِ يَحتويها جِلْدُ ثَوْرٍ» . وَلا شَكَّ أَنَّ ٱلقَصْدَ كانَ حِرْمانَ أُولٰئِكَ ٱلمُهاجِرِينَ مِنَ ٱلأَرْضِ بِأُسْلُوبٍ ساخِرٍ .

وَكانَ بَيْنَ ٱلمُهاجِرِينَ أَمِيرَةٌ صَمَّمَتْ عَلَى ٱلبَقاءِ . فَأَمَرَت بِتَقْطِيعِ جِلْدِ ٱلثَّوْرِ شُرُطاً رَفِيعَةً كَرِباطِ ٱلحِذاءِ . وَلَمَّا عُقِدَتْ هٰذِهِ ٱلشُّرُطُ مَعاً مِنْ أَطْرافِها كانَ طُولُها كافِياً لِتَطْوِيقِ تَلَّةٍ . وَعَلَى تِلْكَ ٱلتَّلَّةِ شَيَّدَ ٱلمُهاجِرونَ حِصْناً . وَسَرْعانَ ما نَشَأَتْ حَوْلَ ذٰلِكَ ٱلحِصْنِ مُسْتَوْطَنَةٌ عُرِفَت بِٱسْمِ قَرْطَاجَةَ – وَهُوَ ٱلتَّحْرِيفُ ٱليُونانِيُّ وَٱلرُّومانِيُّ لِٱسْمٍ قَدِيمٍ مَعْناهُ ٱلمَدِينَةُ ٱلجَدِيدَةُ .

كانَ ٱلقَرْطَاجِيُّونَ بَحَّارَةً وَتُجَّاراً ، وَلَمْ يَكُونُوا مُزارِعِينَ . فَعَنْ طَرِيقِ ٱلتِّجارَةِ أَوِ ٱلغَزْوِ كَسَبُوا ٱلمالَ لِشِراءِ ٱلعَبِيدِ ٱلَّذِينَ يَزْرَعُونَ ٱلأَرْضَ وَيَحصُدُونَ غَلاَّتِها ٱلوَفِيرَةَ . وَبِما أَنَّهم لَمْ يَكُونُوا يَدْفَعُونَ لِلعَبِيدِ أَجْراً ، وَكانُوا يَبِيعُونَ ٱلحِنْطَةَ لِمَنْ يَدْفَعُ أَعْلَى سِعْرٍ ، فَإِنَّ أَرْباحَهُم كانَتْ عَظِيمَةً جِدّاً .



وَيَبْرُزُ فِي ٱلْمُجْتَمَعِ ، أَحياناً ، أُنَاسٌ يَكُونُونَ أَقْدَرَ مِنْ سَائِرِ ٱلْقَوْمِ وَأَشَدَّ. ونقولُ عن هؤلاءِ ٱلنَّاسِ عادةً بأَنَّهم زُعَمَاءُ بالفِطْرَةِ. وَقَدْ يُصْبِحُونَ رُؤَساءَ دُوَلٍ ، أو دِكْتَاتُورِيِّينَ أَوْ مُسْتَشَارِينَ مُتَنَفِّذِينَ أَوْ قَادَةً عُظَمَاءَ. وَفِي ٱلتَّارِيخِ أَمْثِلَةٌ عَدِيدَةٌ عَلَى ٱنْتِقَالِ مِثْلِ هذِهِ ٱلْقُدْرَةِ مِنْ جِيلٍ إِلَى جِيلٍ.

وَيَتَحَدَّرُ وَالِدُ هَنِيبَعْل ، هَمِيلْكار بارْكا ، مِنْ أُسْرَةٍ ذَاتِ جَاهٍ وَسُلْطانٍ. وَهَميلكارُ باركا نفسهُ كانَ قائِداً مَشْهُوراً قَادَ بِنَجَاحٍ جَيْشاً ضِدَّ الرُّومَانِ في صِقِلِّيَةَ سَنَةَ ٢٤٧ ق. م. كما انَّهُ قَمَعَ ، في ما بعد ، تَمَرُّدَ جماعَةٍ من جُنْدِهِ انقلبُوا عَلَى قَرْطَاجَةَ.

وقد وُلِدَ هَنِيبَعْل (ٱلَّذي يَعْتَبِرُهُ كَثِيرٌ مِنَ ٱلمُؤَرِّخِينَ أَعْظَمَ قَائِدٍ عَسْكَرِيٍّ في ٱلتَّارِيخِ) في قَرْطَاجَةَ على ٱلأَرْجحِ حوالى سنةِ ٢٤٩ ق. م. وعاشَ حوالى سِتِّينَ عاماً ، إذ يُعْتَقَدُ أَنَّهُ تُوفِّيَ عامَ ١٨٥ ق. م.

كانَ هَمِيلْكار بَارْكا قد عَقَدَ ٱلعَزْمَ على أَنْ يُصْبِحَ وَلَدُهُ مِثْلَهُ قائِداً مُقْتَدِراً ، فَٱصطحَبَهُ وهو لا يزالُ صَبِيّاً في ٱلتَّاسعةِ مِنْ عُمْرِهِ ، إلى إِسْبانْيا حيثُ كانَ ٱلقرطاجِيُّونَ قَدْ أَنْشَأُوا مُسْتَعْمَرَةً لَهُمْ. وَبَدَأَ تَدْرِيبُ القائِدِ ٱلمُنْتَظَرِ لِلْجَيْشِ القَرْطَاجِيِّ في سِنٍّ مُبَكِّرَةٍ. فَمَا انْ أَشْرَفَ هَنِيبَعْلُ عَلَى ٱلعِشْرِينَ مِنْ عُمْرِهِ حَتَّى عُهِدَ إِلَيهِ القِيامُ بِعِدَّةِ مُهِمَّاتٍ عَسْكَرِيَّةٍ صَغِيرَةٍ بإشرافِ وَالِدِهِ في بدايةِ الأَمْرِ ، ثُمَّ بَعْدَ ذلك بإِشرافِ صِهْرِهِ هَسْدْرُوبال ٱلَّذي تُوُفِّيَ سَنَةَ ٢٢١ ق. م. وحِينَذَاكَ كَانَ هَنِيبَعْلُ قَدْ أَصْبَحَ ضَابِطاً مُتَمَرِّساً.



إنَّ التَّدريبَ العَسكَريَّ الشَّامِلَ الَّذي تَلَقَّاهُ هَنيبَعْلُ عَلَى يَدِ وَالِدِهِ ، كَانَ لِغَايَةٍ مُعَيَّنَةٍ . وَمُنْذُ أَنْ كَانَ هَنيبَعْلُ في التَّاسِعَةِ لَمْ تَغِبْ هٰذِهِ الغَايَةُ عَنْ بَالِهِ . فَقَبْلَ ذَهَابِهِ إِلَى إِسْبَانيا أَخَذَ عَلَى نَفْسِهِ عَهْداً قَاطِعاً أَنْ يَحْقِدَ دَوْماً عَلَى رُوما وَالرُّومانيِّين . كان هَميلكار باركا قد عَقَدَ العَزْمَ على أَنْ يَجْعَلَ من ٱبنِهِ رَجُلاً قادراً على أن يَستَمِرَّ في الحَرْبِ ، إذا قُتِلَ هو . وأَنْ يَكسَبَها ، لِيَمْنَعَ رُوما من السَّيْطَرَةِ عَلَى البَحْرِ الأَبيضِ المُتَوَسِّطِ .

وَمُنْذُ أَيَّامِ يُوليوسَ قَيْصَرَ دَرجَ الكَثيرُ مِنَ القَادَةِ عَلَى تَدْوينِ سِيَرِ حَيَاتِهِمْ وَأَشْهَرِ مَعارِكِهِم . وَلِسوءِ الحَظِّ كانَ العَديدُ مِنْهُم عَسْكَرِيِّينَ قَبْلَ أَنْ يَكُونُوا كُتَّاباً . فَجَاءَتْ كُتُبُهُم مُمِلَّةً جِدّاً . أَمَّا يُوليوسُ قَيْصَرُ فَقَدْ كانَ ٱسْتِثْنَاءً . فَبِالإِضَافَةِ إِلَى كَوْنِهِ قائِداً عَسْكَرِيّاً بارِزاً . كَانَ أَديباً تَعْرِضُ لَنا كُتُبُهُ صُورَةً حَيَوِيَّةً عَنْ حَيَاتِهِ وَأَيَّامِهِ .

كانت عبقَرِيَّةُ هَنيبَعْل العَسْكَرِيَّةُ تفوقُ عبقرِيَّةَ قَيْصَر . فَهَلْ كَانَ ذلك القَائِدُ أَديباً مُساوِياً لِقَيْصَر ؟ هذا ما لن نعرِفَهُ . إذْ لم يَصِلْنا شَيءٌ مِنْ كِتَاباتِهِ . وَلٰكِنَّنا نَعْلَمُ مِنْ شَهادَةِ الآخرينَ أَنَّهُ عامَلَ أَسْرَاهُ معامَلَةً تَفْضُلُ مُعامَلَةَ أَيِّ قائِدٍ رُومانيٍّ في زَمانِهِ . وَأَنَّهُ كَانَ قَائِداً ذا عَزِيمَةٍ حَدِيدِيَّةٍ وَصَبْرٍ لا يَنْفَدُ . وَفَوْقَ هذا وَذاكَ كانَ كلُّ الَّذينَ خَدَمُوا تَحْتَ إِمْرَتِهِ يَثِقُونَ بِهِ وَيُطيعُونَهُ دُونَما سُؤال .

وَمِنْ هُنَا يُمْكِنُ الافتِراضُ بِأَنَّ هَنيبَعْلَ كَانَ يَتَمَتَّعُ بِشَخْصِيَّةٍ آسِرَةٍ . وَهِيَ صِفَةٌ نَادِرَةٌ ، بَلْ عَجِيبَةٌ . يَتَفاعَلُ مَعَها النَّاسُ بِشَكْلٍ غَرِيزِيٍّ . كَما أَنَّها الظَّاهِرَةُ المُمَيِّزَةُ لِمُعْظَمِ المُمَثِّلِينَ وَالخُطَباءِ النَّاجِحِينَ . وَعِنْدَما تَكُونُ الجُزْءَ الرَّئِيسِيَّ في خُلُقِ أَحَدٍ مِنَ النَّاسِ . فَإِنَّها تُوَلِّدُ نُفُوذاً طَاغِياً إِمَّا لِلخَيْرِ أَوْ لِلشَّرِّ .

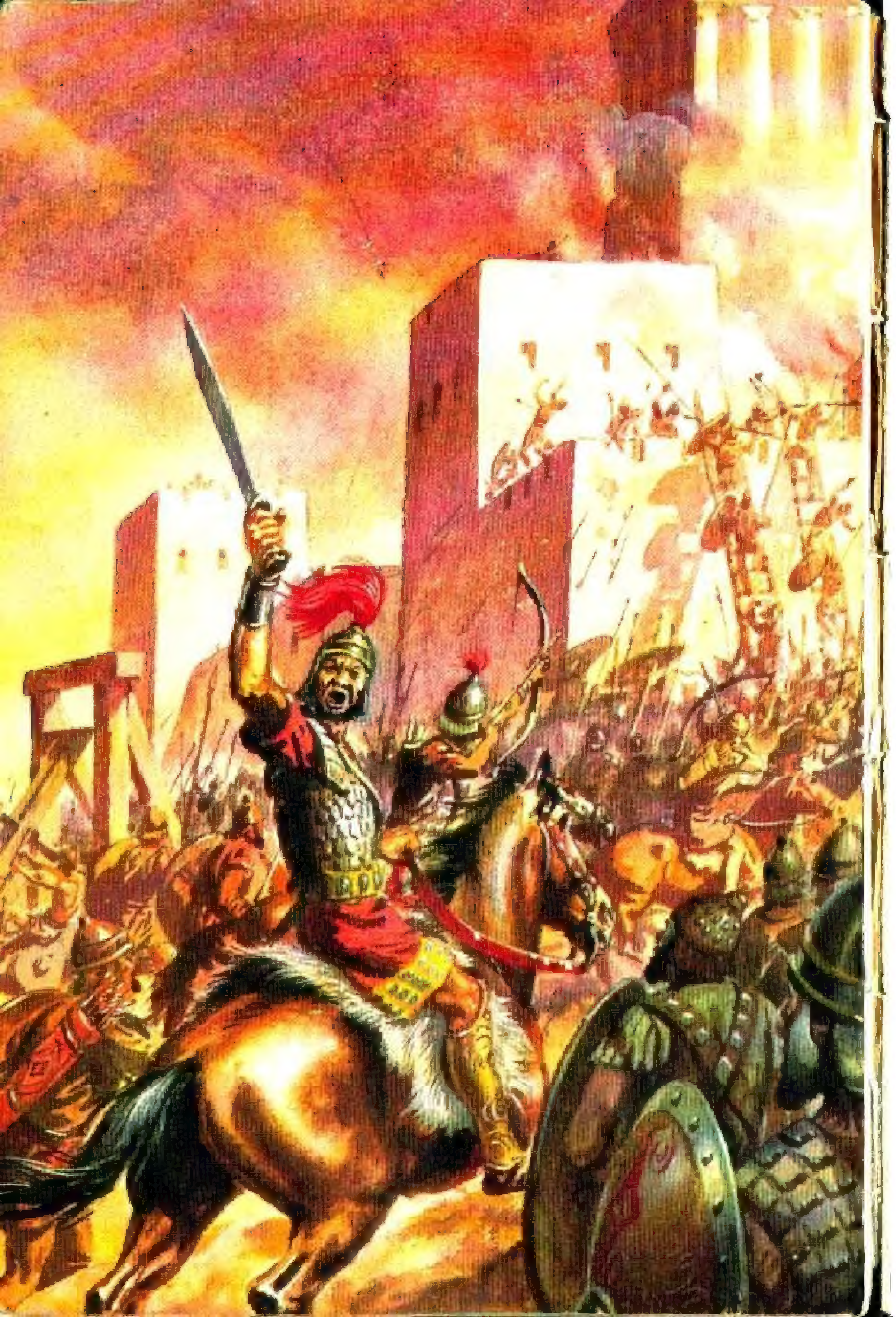


وَعِنْدَمَا ٱغْتِيلَ هَسْدْروبالُ كَانَ هَنِيبَعْلُ فِي ٱلسَّادِسَةِ وَٱلعِشْرِينَ من عمرِهِ تَقْرِيباً ، ومع أَنَّ تاريخَ ميلادِ هَنِيبَعْل غيرُ ثابتٍ فان ما ذكرناه عَنْ سِنِّهِ آنذاكَ ، قريبٌ جِدّاً من ٱلصِّحَّةِ. وكانَ كُلٌّ مِنْ هَسْدْروبالَ وَهَنِيبَعْلَ قائِداً يَحظَى بِثِقَةِ ٱلجَيْشِ وَوَلائِهِ. أَمَّا هَنِيبَعْلُ فقد نَشَأَ بَيْنَ الجنودِ يُشارِكُهُم ٱلصِّعابَ وَٱلمَخاطِرَ. أَثْبَتَ أَنَّهُ مُقاتِلٌ جَرِيءٌ وقائِدٌ ماهِرٌ. وَفَوْقَ هذا وَذاكَ كانَ نِعْمَ الرَّفيق. فَٱعْتَبَرَهُ رِجالُهُ وَاحِداً مِنْهُم إِلَّا أَنَّهُم لَمْ يَتَرَدَّدُوا إِطْلاقاً فِي ٱلثِّقَةِ بِهِ وَإِطاعَتِهِ كَقائِدٍ.

قَدْ تَقْرَأُ فِي كُتُبٍ مِنْ هٰذِهِ ٱلسِّلْسِلَةِ عَنْ قائِدَيْنِ شابَّيْنِ ناجِحَيْنِ آخَرَيْنِ هُما ٱلإِسْكَنْدَرُ ٱلأَكْبَرُ ٱلَّذي ٱجْتازَ مَضِيقَ ٱلدَّرْدَنِيلِ وَهُوَ فِي ٱلثَّانِيَةِ وَٱلعِشْرِينَ عَلَى رَأْسِ جَيْشٍ مِنْ خَمْسَةٍ وَعِشْرِينَ أَلْفَ رَجُلٍ. وَنابُولْيُونُ ٱلَّذي قادَ مَجْمُوعَةً ساخِطَةً مُفَكَّكَةً مِنْ سِتَّةٍ وَثَلاثِينَ أَلْفَ ضابِطٍ وَجُنْدِيٍّ عَلَى وَشْكِ ٱلتَّمَرُّدِ. فَوْقَ ٱلثَّلْجِ وَٱلجَلِيدِ عَبْرَ مَمَرَّاتِ ٱلأَلْبِ إِلَى إِيطالْيا. إِلَّا أَنَّ لِكُلٍّ مِنْهُما رَصِيداً غَيْرَ ٱلشَّبابِ.

فَكانَ جُنُودُ ٱلإِسْكَنْدَرِ يَتْبَعُونَهُ بِكُلِّ تَفانٍ آلافَ ٱلأَمْيالِ. وَكانَتْ مَحَبَّةُ جُيُوشِ نابُولْيُونَ وَطاعَتُها هُما ٱللَّتانِ أَوْحَتا بِاللَّقَبِ ٱلَّذي أَطْلَقَتْهُ هٰذِهِ ٱلجُيُوشُ عَلَيْهِ وَهُوَ – أَلعَرِيفُ ٱلصَّغِيرُ.

لا يكفي أن يكونَ القائِدُ قديراً لِيَكْتَسِبَ تَفانِيَ رِجالِهِ. فَقَدْ تَعَلَّمَ ٱلاسْكَنْدَرُ مِنْ هُجُومِهِ على إِحْدَى ٱلمُدُنِ ٱلَّتي كانَتْ تَحْتَ سَيْطَرَةِ ٱلمالِّيِّينَ ، وَتَعَلَّمَ نابُولْيُونُ عِنْدَ جِسْرِ لُودي أَنَّ ٱلضَّابِطَ الذي يصيح بجنوده «إِتْبَعُوني» ، مَهْمَا كانَتْ رُتْبَتُهُ ، لَهُوَ أَفْضَلُ قائِداً مِنَ ٱلجِنِرالِ ٱلَّذي يَصِيحُ بِجُنُودِهِ «تقدَّموا!» ، مَهْمَا عَلا صَوْتُهُ.

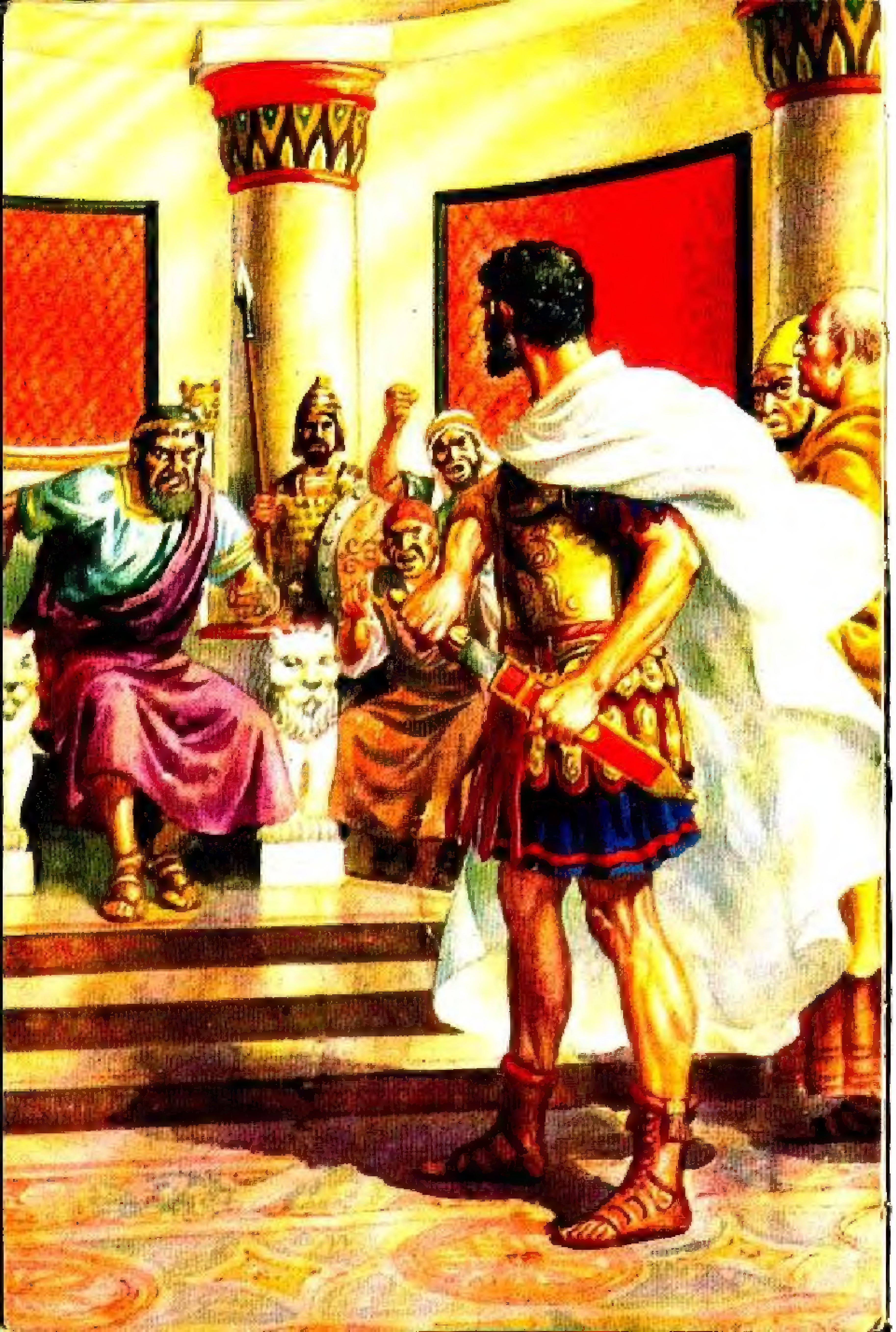


قُتِلَ هَسْدْرُوبَالُ وَهُوَ لَا يَزَالُ شَابًّا نِسْبِيًّا. وَكَانَ قَدْ عَقَدَ مُعَاهَدَةً غَيْرَ مُوَفَّقَةٍ مَعَ رُوما، وَتَمَّ ٱلاتِّفَاقُ بِمُوجِبِ هٰذِهِ ٱلْمُعَاهَدَةِ عَلَى أَنْ يَكُونَ نَهْرُ إِبْرُو ٱلْحَدَّ ٱلشَّمَالِيَّ لِلْمُسْتَعْمَرَةِ ٱلْقَرْطَاجِيَّةِ فِي إِسْبَانيا وَأَنْ تَبْقَى ٱلْبِلَادُ إِلَى ٱلشَّمَالِ مِنَ ٱلنَّهْرِ تَحْتَ حُكْمِ رُوما. إِلَّا أَنَّ هُنَاكَ ٱسْتِثْنَاءً وَاحِداً وَهُوَ أَنَّ مَدِينَةَ سَاغُنْتُوم مَعَ مَرْفَئِها إِلَى ٱلْجَنُوبِ مِنْ إِبْرُو بَقِيَتْ رُومانِيَّةً.

وَإِذَا نَظَرْنَا إِلَى خَارِطَةِ إِسْبَانيا نَرَى أَنَّ نَهْرَ إِبْرُو يَنْبَعُ مِنْ جِبَالِ كَنْتَابْرا عَلَى بُعْدِ حَوَالَى ثَمانِينَ كِيلومِتراً إِلَى الْجَنُوبِ مِنْ بِيلْبَاو عَلَى ٱلسَّاحِلِ ٱلشَّمَالِيِّ. وَيَجْرِي بِٱتِّجَاهِ ٱلْجَنُوبِ ٱلشَّرْقِيِّ مَسَافَةَ ٧٤٤ كيلومتراً لِيَصُبَّ فِي ٱلْبَحْرِ ٱلأَبْيَضِ ٱلْمُتَوَسِّطِ. وَعَلَى مَسَافَةِ ١٤٤ كيلومتراً تَقْرِيباً إِلَى ٱلْجَنُوبِ مِنْ مَصَبِّ إِبْرُو تَقَعُ سَاغُنْتُوم. وَمَعَ أَنَّ ٱلْقِسْمَ ٱلأَكْبَرَ مِنْ إِسْبَانْيَا بَقِيَ مُسْتَعْمَرَةً قَرْطَاجِيَّةً. فَقَدْ كَانَ فِي وُسْعِ ٱلرُّومَانِ أَنْ يَنْزِلُوا إِلَى ٱلْبَرِّ جَيْشاً غَازِياً وَأَنْ يُعَزِّزُوهُ مَتَى شَاؤُوا بِٱسْتِعْمَالِهِمْ مَرْفَأَ سَاغُنْتُوم.

وَكَانَ هَمِيلْكَارُ بَارْكَا ٱلَّذِي كَرِهَ رُوما يُدْرِكُ هٰذَا ٱلْخَطَرَ وَمَا كَانَ لِيُوافِقَ أَبَداً عَلَى ٱلْمُعَاهَدَةِ ٱلَّتِي أَجْرَاهَا هَسْدْرُوبال. وَيُرَجَّحُ أَنَّ سَبَبَ تَصْمِيمِهِ عَلَى ٱحْتِلَالِ إِسْبَانْيَا كَانَ ٱلاسْتِعْدَادَ لِغَزْوِ شَمَالِ إِيطَالْيَا عَبْرَ جِبَالِ ٱلأَلْبِ. وَكَانَ ٱلأُسْطُولُ ٱلرُّومَانِيُّ قَدْ أَصْبَحَ أَقْوَى بِكَثِيرٍ مِنْ أُسْطُولِ قَرْطَاجَةَ، فَٱضْطُرَّ هَنِيبَعْلُ إِلَى ٱحْتِلَالِ سَاغُنْتُوم تَفَادِياً لِخَطَرِ وُجُودِ جَيْشٍ رُومانِيٍّ فِي مُؤَخَّرَتِهِ.

وَبِهٰذَا خَرَقَ ٱلْمُعَاهَدَةَ ٱلَّتِي عَقَدَهَا هَسْدْرُوبال. وَلَمْ يَكُنْ أَمَامَهُ خِيَارٌ آخَرُ. فكفاءته العسكريَّةُ كانت أعظمَ من أَنْ يُعَرِّضَ نفسَه لذلك المأزِق.



ضَرَبَ هَنِيبَعْلُ ٱلحِصَارَ عَلَى سَاغُنْتُوم فِي رَبِيعِ سَنَةِ ٢١٩ ق. م. عَلَى ٱلرَّغْمِ مِن ٱعْتِرَاضَاتِ مَجْلِسِ ٱلشُّيُوخِ ٱلرُّومَانِيِّ. وَبَعْدَ ثَمَانِيَةِ أَشْهُرٍ سَقَطَتْ سَاغُنْتُوم فِي يَدَيهِ. وَهٰكَذَا زَالَ خَطَرُ ٱنْخِرَاطِهِ فِي قِتَالٍ فِي ٱلمُؤَخَّرَةِ.

وَنَحْنُ مَيَّالُونَ الى أَنْ نَتَمَثَّلَ صُورَةَ روما باعتبارِهَا امبراطوريَّةَ ٱلقَيَاصِرَةِ ٱلقَوِيَّةَ. غَيْرَ أَنَّ رُوما عَامَ ٢٠٠ ق. م. كَانَتْ غَيْرَ ذٰلِكَ تَمَاماً. إنَّ هنيبَعْل، عِندَمَا قَرَّرَ مُهَاجَمَةَ سَاغُنْتُوم كَانَ يَتَحَدَّى عَدُوّاً يمكنُهُ أَنْ يتغلَّب عليه.

وَٱسْتَغْرَقَ احْتِلالُ الحِصْنِ وَٱلمَرْفَإِ فِي سَاغُنْتُوم وَقْتاً أَكْثَرَ مِمَّا قَدَّرَهُ هَنِيبَعْلُ. وَسَبَبُ ذلك أن ٱلسُّفُنَ ٱلرُّومانِيَّةَ كانت قادرةً عَلَى إمدادِ المدينةِ بَحْراً بالمُؤَنِ والرِّجَالِ. وَعِنْدَمَا زَالَ خَطَرُ هذا الجَيْبِ الرومانيِّ أَصْبَحَ فِي وُسْعِ هَنِيبَعْلَ أَنْ يَزْحَفَ شَمالاً بِحُرِّيَّةٍ.

سَبَقَ لِلرُّومانِ أَنْ أَنْذَرُوا ٱلقَرطاجِيِّينَ بِأَنَّ ٱلهُجُومَ عَلَى سَاغُنْتُوم سَتَكُونُ لَهُ عواقِبُ وَخِيمَةٌ. أَمَّا ٱلآنَ فَقَدْ أَصَرُّوا عَلَى أَنْ يُسَلِّمَ لَهُم هَنِيبَعْلُ أَسيراً مُقَيَّداً بِٱلسَّلاسِلِ. وَأَنْ تَعُودَ حَامِيَةٌ رُومانِيَّةٌ إِلى ٱحْتِلالِ مَرْفَإِ سَاغُنْتُوم. وقد وَقَفَ المَبْعُوثُ الرومانيُّ الى قَرْطَاجَةَ أمامَ مَجْلِسِ الشُّيوخِ ٱلقَرْطاجِيِّ وِقْفَةَ تَعَجْرُفٍ مُوَجِّهاً اليه تَهديدَه. فكان ذلكَ مَشْهَداً مثيراً. لَقَدْ صَاحَ بِقَوْلِهِ: «جِئْتُكُمْ بِٱلسِّلْمِ أَو بِٱلحَرْبِ. فَٱخْتَارُوا!» فاجابَهُ الشُّيوخ بِهُدُوءٍ: «ما تختاره أنت؟». فَطَرَحَ السَّفِيرُ عَنْهُ عَبَاءَةَ السَّلامِ ٱلبَيْضَاءَ ووضَعَ يَدَه على سيفِهِ وَصَاحَ: «هٰذا هُوَ رَدُّ رُوما!»



تُحدثُ الأنهارُ عبرَ التاريخِ حدوداً فاصلةً. فاجتيازُ أحدِها إذا كانت له أحياناً أهميّةٌ. وينطبقُ هذا على عبورِ قيصرَ نهرَ روبيكون عندما قالَ: «ما كانَ قدْ كان». يعني أنّه قدْ أقدمَ على أمرٍ لا رجوعَ عنه.

وعبورُ هنيبعلَ نهرَ إيبرو له أهميّةٌ مماثلةٌ. وقد كانَ هذا النهرُ خلافَ نهرِ روبيكون، محمياً حمايةً قويةً. وما أن أصبحَ هنيبعلُ على ضفّتِه الأخرى حتّى أدركَ أنّه سيواجهُ مئاتِ الكيلومترات من الأرضِ الشديدةِ الوعورةِ وسلسلتَيْنِ من الجبالِ هما البيرينه والألب، ونهرَ الرون. المعبرُ الحصينُ الآخرُ يمرُّ بين هاتيْنِ السلسلتيْنِ. وكانت طريقُه عمليّاً تمرُّ عبرَ أرضٍ تقطنُها القبائلُ السلتيّةُ المعاديةُ مع وجودِ حامياتٍ رومانيّةٍ في مواقعَ رئيسيّةٍ.

ولا نعلمُ على وجهِ التحقيقِ الطريقَ التي سلكها هنيبعلُ. وحتّى في أيامنا هذه فإنّ السيرَ من طرطوشةَ على نهرِ إيبرو إلى روما ليس بالأمرِ اليسيرِ. ولكَ أن تتخيّلَ ما كانَ على الجنودِ أنْ يلاقوه في أيامِ هنيبعلَ ومعهم عرباتٌ تجرّها الثيرانُ وفيلةٌ تحملُ المؤنَ، بالإضافةِ إلى خطرِ وقوعِ هجومٍ عليهم من جانبِ قبائلَ متوحّشةٍ ترميهم بالصخورِ.

وكانَ لهنيبعلَ أخٌ أصغرُ منه اسمُه هسدروبال باركا - ونتذكّرُ أنّ صهرَه الذي ماتَ غيلةً كانَ اسمُه أيضاً هسدروبال. وكانَ هسدروبال باركا ضابطاً مدرّباً. ويمكنُنا أنْ نتصوّرَ الأخوَيْنِ عاكفَيْنِ على دراسةِ الخططِ التي وضعها لهما هميلكار. لقدْ واجهَ القائدانِ الشابانِ حملةً عسكريّةً غايةً في الصعوبةِ. وكانَ هميلكار يلقّبُ هسدروبال وهنيبعلَ بأنّهما «شبلا الأسد». وسرعانَ ما أثبتَ أنّه كانَ على صوابٍ.



إنَّ صُعوباتِ ٱلسَّيْرِ ٱلطَّويلِ مَعَ ٱلتَّعَرُّضِ بِٱلْهُجومِ ٱلْمُسْتَمِرِّ تَكْفي لِتَثْني قائِدٍ دونَ هَنيبَعْل عَزيمَةً عن غايَتِهِ. غَيْرَ أَنَّ هَنيبَعْل كانَ قَدْ أَقْسَمَ يَمينًا قاطِعَةً بِأَنْ يُواصِلَ الحَمْلَةَ عَلى روما. وكانَ يَعتَقِدُ اعْتِقادًا راسِخًا أَنَّ الحِنْثَ بِهٰذِهِ اليَمينِ سَيُسَبِّبُ كارِثَةً.

وكانَ ٱلجَيْشُ ٱلَّذي تَحْتَ إِمْرَتِهِ سَبَبًا أَكْبَرَ لِقَلَقٍ. فَرِجالُهُ مُتَنَوِّعونَ أَجْناسًا وأَلْوانًا. فَمِنْ فُرْسانٍ نوميديِّينَ مِنْ إفريقيا إِلى غالِيِّينَ مِنْ إِسْبانيا – لُغاتُهُمْ مُخْتَلِفَةٌ وأَساليبُهُم في ٱلقِتالِ مُتَفاوِتَةٌ جِدًّا. كَما أَنَّهُم مِنْ بُلْدانٍ يُناصِبُ بَعْضُها بَعْضًا ٱلعَداوَةَ ٱلمَريرَةَ. فَكانوا يُحارِبونَ كَجُنودٍ مُرْتَزِقَةٍ. أَيْ في سَبيلِ ٱلأَجْرِ، وَهُوَ ضَئيلٌ جِدًّا، وَطَمَعًا بِالأَسْلابِ، وَهِيَ كَبيرَةٌ إِذا قُيِّضَ لَهُمُ ٱلنَّصْرُ.

أَمَّا ٱلجَيْشُ ٱلرّومانِيُّ فَكانَ بِٱلمُقابِلِ مُؤَلَّفًا في مُعْظَمِهِ مِنْ رِجالٍ مُتَجانِسينَ عِرْقًا ولُغَةً وَفَوْقَ ذٰلِكَ كانوا يُقاتِلونَ دِفاعًا عَنْ وَطَنِهِمْ بِبَسالَةِ ٱلجُنودِ ٱلمُدَرَّبينَ وَوَلاءِ ٱلمُواطِنينَ. فَكانَتْ حُروبُ ٱلطَّرَفَيْنِ صِراعًا بَيْنَ ٱلوَطَنِيَّةِ وَٱلطَّمَعِ.

وَلَمْ يَكُنْ هَنيبَعْل ٱلَّذي بَلَغَ مِنَ ٱلخِبْرَةِ ٱلعَسْكَرِيَّةِ شَأْوًا بَعيدًا لِيُسْقِطَ كُلَّ هٰذِهِ ٱلأُمورِ مِنْ حِسابِهِ. فَقَدْ أَدْرَكَ أَنَّ ٱلكَثيرَ مِنْ رِجالِهِ، إِنْ لَمْ يَكُنْ جَميعُهُمْ، لَيْسوا مُدَرَّبينَ، وَأَنَّهُمْ لَيْسوا مُنَظَّمينَ تَنْظيمًا حَسَنًا، وَلَمْ يَأْلَفوا ٱلانْضِباطَ، وَأَنَّهُمْ يُحارِبونَ في سَبيلِ دَوافِعَ دونَ دَوافِعِ ٱلرّومانِ رُسوخًا. وَلِهٰذا فَإِنَّهُ ٱتَّكَلَ عَلى شَيْءٍ آخَرَ. فَقَدْ كانَ جَيْشُهُ مُؤَلَّفًا مِنْ رِجالٍ، مَهْما تَكُنْ كَراهِيَةُ أَحَدِهِمْ لِلآخَرِ، مُخْلِصينَ كُلَّ ٱلإِخْلاصِ لِشَخْصِهِ. وهٰذا ٱلعامِلُ هُوَ ٱلَّذي يَجْعَلُ ٱلمُعادَلَةَ مُخْتَلِفَةً كُلَّ ٱلاخْتِلافِ.



عَلى قائِدِ الجَيْشِ العَصْرِيِّ الَّذي يُخَطِّطُ لِتَقَدُّمٍ أَنْ يَعْرِفَ سَلَفاً ما إِذا كانَ الطَّريقُ عَريضَةً والجُسورُ قَوِيَّةً إِلى حَدٍّ يَكْفي لِمُرورِ دَبّاباتِهِ أَوْ مَدافِعِهِ الضَّخْمَةِ. فَيَدْرُسُ الخَرائِطَ والصُّوَرَ المُلْتَقَطَةَ مِنَ الجَوِّ وَتَقاريرَ الجَواسيسِ، بَلْ وَصُوَرَ الَّتي يَلْتَقِطُها السُّيّاحُ لِلْمَسابِحِ وَالشَّواطِئِ الصَّخْرِيَّةِ.

إِنَّ فُرَصاً كَهٰذِهِ لَمْ تَكُنْ مُتَوَفِّرَةً لِهَنيبَعْلَ. فَالجَواسيسُ لَمْ يَكونوا مَصْدَرَ ثِقَةٍ. وَلَمْ تَكُنْ هُناكَ خَرائِطُ لِطُرُقٍ حَيْثُ لا وُجودَ لِطُرُقٍ. وَلَمْ يَخْطُرْ بِبالِ أَحَدٍ أَنَّ مِنَ المُفيدِ رَسْمَ خَرائِطَ لِدُروبٍ بَيْنَ قَرْيَةٍ وَأُخْرى. فَالقِلَّةُ مِنَ السُّكّانِ المَحَلِّيِّينَ الَّذينَ كانوا يَسْتَخْدِمونَ هٰذِهِ الدُّروبَ كانوا يَبْلُغونَ مَقاصِدَهُمْ أَوْ لا يَبْلُغونَها. وَكانَ النّاسُ يَفْتَرِضونَ أَنَّ الَّذينَ لَمْ يَصِلوا ذَهَبوا فَريسَةً لِلذِّئْبِ. وَلَوْ أَنَّ مِثْلَ تِلْكَ الخَرائِطِ وُجِدَتْ لَما كانَ لَها فائِدَةٌ عَمَلِيَّةٌ

لَمْ يَكُنْ لِهَنيبَعْلَ بِطَبيعَةِ الحالِ دَبّاباتٌ، بَلْ فِيَلَةٌ وَعَرَباتٌ ثَقيلَةٌ غَيْرُ مُتْقَنَةِ الصُّنْعِ تَجُرُّها مَجْموعاتٌ مِنَ الثِّيرانِ. فَكانَ جَحْفَلُهُ مِنَ المُشاةِ وَالفُرْسانِ وَعَرَباتِ التَّمْوينِ يَمْتَدُّ أَمْيالاً. وَحَيْثُما يَكونُ مَوْقِعُ قائِدِ الجَيْشِ، لَمْ يَكُنْ بِاسْتِطاعَتِهِ أَنْ يَعْرِفَ يَقيناً ماذا يَحْدُثُ لِجُزْءٍ مِنَ الجَحْفَلِ عَلى بُعْدِ عَشَرَةِ كيلومِتْراتٍ أَوْ عِشْرينَ كيلومِتْراً مِنْهُ.

وَلا شَكَّ أَنَّهُ كانَ لَدى هَنيبَعْلَ ضُبّاطٌ فُرْسانٌ يَعْدونَ عَلى طولِ الجَحْفَلِ يُنَفِّذونَ أَوامِرَهُ أَوْ يُزَوِّدونَهُ بِأَخْبارِ أَيِّ هُجومٍ. وَرُبَّما اسْتَغْرَقَتْهُمُ العَوْدَةُ عَبْرَ الدُّروبِ الصَّخْرِيَّةِ المُتَقَطِّعَةِ ساعاتٍ عِدَّةً. هٰذا إِذا تَمَكَّنوا مِنَ العَوْدَةِ. وَقَدْ يَتَعَذَّرُ عَلى الفيلِ أَنْ يَجْتازَ مَمَرّاً جَبَلِيّاً ضَيِّقاً شُقَّ عَلى جانِبٍ شَديدِ الانْحِدارِ.



عَبَرَ هَنيبَعْلُ نَهْرَ إِبْرُو بَيْنَ أَواخِرِ شَهْرِ أَيَّارَ (مايو) وَأَوائِلِ شَهْرِ تَمُّوزَ (يُولْيُه). وَكانَ أَمَلُهُ أَنْ يَجْتازَ النَّهْرَ دُونَ كَبيرِ صُعوبَةٍ، غَيْرَ أَنَّ القَبائِلَ السَّلْتِيَّةَ، رَغْمَ عَداوَتِها لِرُوما، لَمْ تَكُنْ مُسْتَعِدَّةً لِلتَّرْحيبِ بِجَيْشٍ قَرْطاجِيٍّ. ولا شَكَّ أَنَّ اجْتِيازَ هٰذِهِ العَقَبَةِ الكَأْداءِ الأُولَى في مَسيرَةٍ طَويلَةٍ قَدْ عَلَّمَتِ الجَيْشَ القَرْطاجِيَّ المُخْتَلِطَ الشَّيْءَ الكَثيرَ.

وَمِنَ المُهِمِّ حِينَ مُطالَعَةِ حَمْلَةٍ عَسْكَرِيَّةٍ، سَواءٌ في الزَّمَنِ القَديمِ أَوِ الحَديثِ، أَنْ نَتَتَبَّعَ عَلَى الخارِطَةِ الطَّريقَ الَّتي سَلَكَتْها الحَمْلَةُ. وَإِذا كانَتِ الخارِطَةُ عَلَى نَحْوٍ يُظْهِرُ تَضاريسَ البِلادِ مِنْ أَنْهارٍ وَجِبالٍ وَسُهُولٍ بِالأَلْوانِ، أَمْكَنَ تَصَوُّرُ ما كانَتْ عَلَيْهِ الحالُ مُنْذُ أَكْثَرَ مِنْ أَلْفَيْ سَنَةٍ. لَمْ تَكُنْ هُناكَ، في ذٰلِكَ العَصْرِ، طُرُقٌ مُعَبَّدَةٌ وَسِكَكٌ حَديدِيَّةٌ وَمُدُنٌ وَمَطاراتٌ غَيْرَ أَنَّ الجِبالَ وَالأَنْهارَ هِيَ نَفْسُها لَمْ تَتَغَيَّرْ.

وَإِذا تَناوَلْنا أَيَّ أَطْلَسٍ فَإِنَّهُ يَدُلُّنا عَلَى أَنَّهُ كُلَّما اقْتَرَبَ هَنيبَعْلُ مِنَ السَّاحِلِ زادَتْ طَريقُهُ سُهُولَةً. فَجِبالُ البيرينه لَيْسَتْ بِارْتِفاعِ جِبالِ الأَلْبِ وليست بِصعوبتها عِنْدَ الاجْتِيازِ. وَمِنَ الطَّبيعِيِّ أَنْ يَسْلُكَ هَنيبَعْلُ أَسْهَلَ السُّبُلِ

وَإِذا تَتَبَّعْنا عَلَى الخارِطَةِ مَمَرَّ الخَطِّ الحَديدِيِّ بَيْنَ طَرْطوشَةَ في إِسْبانيا وَبِيربينيا في فَرَنْسا، فَمِنَ المُرَجَّحِ أَنْ لا نَكونَ بَعيدينَ جِدّاً عَنْ خَطِّ سَيْرِ هَنيبَعْلَ وَأَفْيالِهِ. وَمَعَ أَنَّ الأَفْيالَ تَكونُ مُفيدَةً جِدّاً في غالِبِ الأَحْيانِ، فَلا بُدَّ مِنْ أَنْ يَكونَ هَنيبَعْلُ قَدْ تَمَنَّى أَحْياناً لَوْ أَنَّهُ لَمْ يَجْلِبْها مَعَهُ. وَلَوْ سَأَلْنا أَيّاً كانَ عَمّا يَعْرِفُ عَنْ هَنيبَعْلَ لَكانَ جَوابُهُ عَلَى الأَرْجَحِ أَنَّهُ ذاكَ الَّذي عَبَرَ جِبالَ الأَلْبِ بِعَدَدٍ مِنَ الفِيَلَةِ.



إِنَّ الأَرْضَ المُمْتَدَّةَ مِنْ نَهْرِ إبْرُو إِلَى جِبَالِ البِيرِينه لَيْسَتْ صَعْبَةً جِدّاً عَلَى جَيْشٍ يَزِيدُ تَعْدَادُهُ عَلَى مِئَةِ أَلْفِ رَجُلٍ، مِنْهُمْ حَوَالَى اثْنَي عَشَرَ أَلْفاً مِنَ الفُرْسَانِ. فَهِيَ أَرْضٌ مِنْ نَوْعِ القُوَّةِ. وَمِنَ الأَعْمَالِ الَّتِي يَقُومُ بِهَا أَيُّ جَيْشٍ حَتَّى فِي يَوْمِنَا الحَاضِرِ، تَنْظِيفُ الطَّرِيقِ عَبْرَ الأَرَاضِي الوَعِرَةِ. وَفِي هَذَا المَجَالِ بِالذَّاتِ وَجَدَ هَنِيبَعْلُ قُوَّةَ الأَفْيَالِ مُفِيدَةً جِدّاً. فَقَدْ أَزَالَتِ الحِجَارَةَ الكَبِيرَةَ وَالأَشْجَارَ السَّاقِطَةَ الَّتِي كَانَتْ تَسُدُّ طَرِيقَ العَرَبَاتِ الَّتِي تَجُرُّهَا الثِّيرَانُ، كَمَا أَنَّ الأَفْيَالَ كَانَتْ تَنْتَشِلُ العَرَبَاتِ إِذَا مَا عَلِقَتْ فِي أَوْحَالِ المُسْتَنْقَعَاتِ وَعَجَزَتِ الثِّيرَانُ عَنْ سَحْبِهَا.

وَكَانَ أَمَلُ هَنِيبَعْلَ أَنْ لَا يَخْسَرَ رِجَالاً أَوْ وَقْتاً قَبْلَ وُصُولِهِ إِلَى حَاجِزِ جِبَالِ الأَلْبِ، إِلَّا أَنَّهُ نَجَحَ نَجَاحاً جُزْئِيّاً فِي ذَلِكَ. فَقَدِ اسْتَطَاعَ اسْتِمَالَةَ بَعْضِ القَبَائِلِ الَّتِي صَادَفَهَا عَنْ طَرِيقِ الإِقْنَاعِ أَوِ الرِّشْوَةِ بِسَمْحِ لِجَيْشِهِ بِالمُرُورِ، غَيْرَ أَنَّ بَعْضَهَا الآخَرَ عَمَدَ إِلَى مَا نُسَمِّيهِ اليَوْمَ بِحَرْبِ العِصَابَاتِ. وَلِمُعَالَجَةِ هَذِهِ القَبَائِلِ وَلِلتَّأَكُّدِ مِنِ اسْتِتْبَابِ الأَمْنِ فِي المَنَاطِقِ الَّتِي يَتْرُكُهَا هَنِيبَعْلُ وَرَاءَهُ، أَفْرَزَ قُوَّةً مِنْ قُرَابَةِ عَشَرَةِ آلَافِ رَجُلٍ بِهَذَا الغَرَضِ.

وَيُرَجَّحُ أَنَّ الجَحْفَلَ الغَازِيَ الطَّوِيلَ البَطِيءَ وَالمَكْشُوفَ الجَوَانِبِ قَدِ اجْتَازَ سُفُوحَ البِيرِينه مِنْ مَمَرٍّ يُعْرَفُ بِاسْمِ كُول دِي بَانُول. وَلَيْسَ مِنْ سَبِيلٍ لِلتَّأَكُّدِ مِنَ الطَّرِيقِ الَّذِي سَلَكَهُ هَنِيبَعْلُ. وَلَكِنْ لَا بُدَّ مِنْ أَنَّهُ كَانَ يَرْغَبُ فِي البَقَاءِ قُرْبَ السَّاحِلِ قَدْرَ المُسْتَطَاعِ. وَاليَوْمَ تَمُرُّ الخُطُوطُ الحَدِيدِيَّةُ عَبْرَ الأَنْفَاقِ فِي الجِبَالِ. أَمَّا هَنِيبَعْلُ فَكَانَ مُضْطَرّاً لِلمُرُورِ فَوْقَ القِمَمِ أَوْ عَبْرَ المَغَاوِرِ الصَّخْرِيَّةِ.

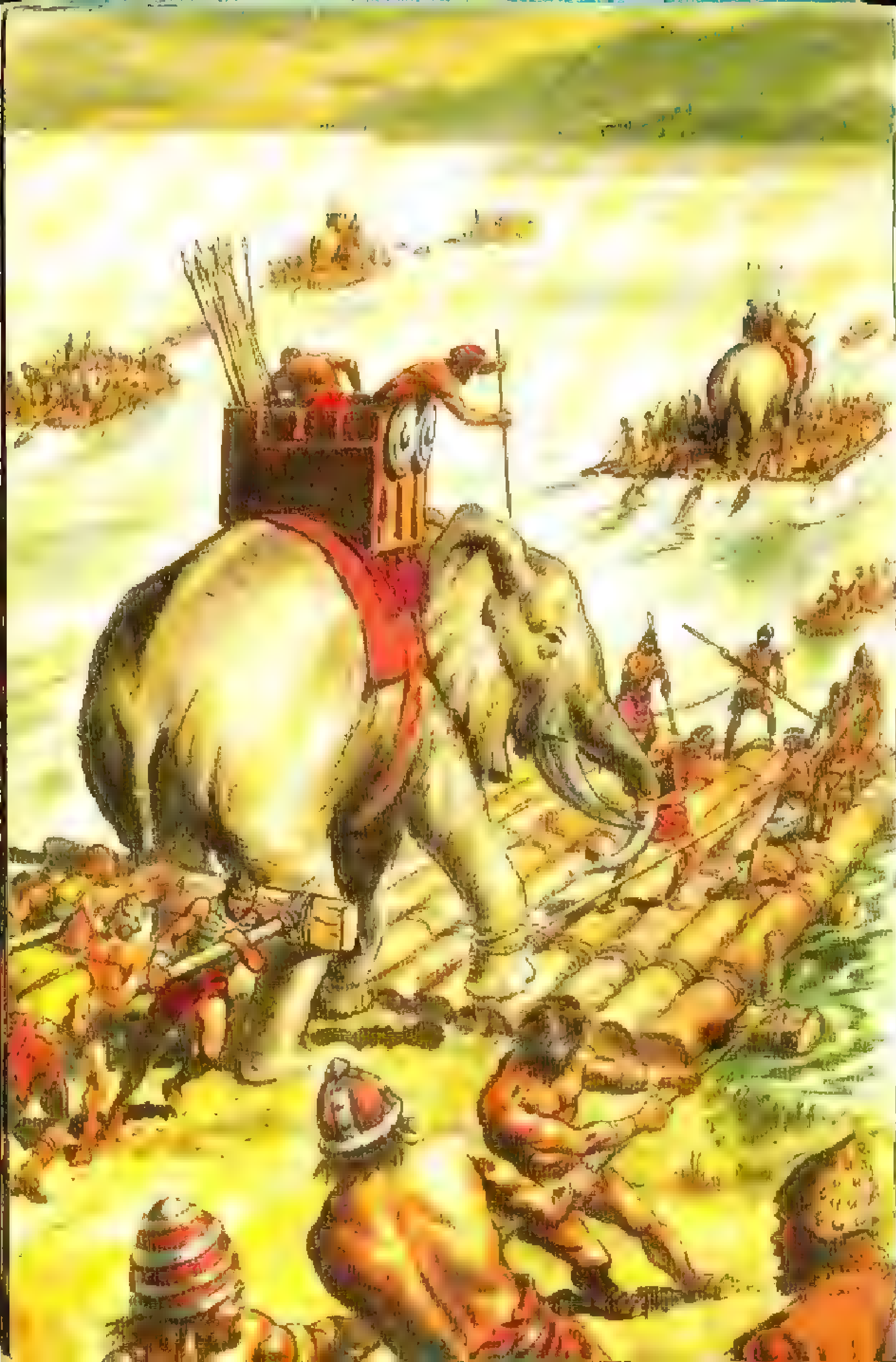


وَفِي هٰذِهِ ٱلأَثْنَاءِ أَرْسَلَ ٱلرُّومَانُ أُسْطُولاً بِقِيَادَةِ بوبليوس سيبيو لِغَزْوِ إِسْبَانْيَا . وَكَانَ ٱلْقَصْدُ ٱلاتِّصالَ بِجَيْشٍ رُومانِيٍّ آخَرَ يَعْبُرُ ٱلْبِلادَ مِنْ إِفْرِيقِيا . وَعَلَى طَرِيقِ ٱلسَّاحِلِ ٱلْفَرَنْسِيِّ ٱلطَّوِيلِ تَوَقَّفَ سيبيو فِي مَرْسِيلْيا لِيَطَّلِعَ عَلَى مَا يُمْكِنُ مَعْرِفَتُهُ عَنِ ٱلْجَيْشِ ٱلْقَرْطَاجِيِّ ٱلْغَازِي . وَقَدْ ذُهِلَ حِينَ عَلِمَ أَنَّ هَنِيبَعْلَ قَدْ وَصَلَ مُنْذُ مُدَّةٍ إِلَى ٱلرُّون .

أَمَّا هَنِيبَعْلُ فَلَمْ يُضِعْ وَقْتاً . وَقَدْ أَدْرَكَ قِيمَةَ ٱلْمُبَاغَتَةِ ، كَمَا أَدْرَكَهَا نَابُولِيون بَعْدَهُ بِأَلْفَيْ سَنَةٍ . فَحَثَّ ٱلْخُطَى إِلَى أَنْ وَصَلَ وَادِيَ ٱلرُّونِ وَقَطَعَ ٱلنَّهْرَ وَتَقَدَّمَ شَمَالاً قَبْلَ أَنْ يَنْزِلَ سيبيو إِلَى ٱلْبَرِّ جُنْدُهُ ٱلَّذِينَ أَصَابَهُم دُوَارُ ٱلْبَحْرِ . إِلَّا أَنَّ سيبيو قَرَّرَ ٱلتَّحَرُّكَ بِسُرْعَةٍ . فَأَلْغَى ٱلْغَزْوَةَ ٱلْمُقْتَرَحَةَ لِإِسبانيا ، وَجَعَلَ مُهِمَّتَهُ ٱلأُولَى ٱلْعُثُورَ عَلَى جَيْشِ هَنِيبَعْلَ وَتَدْمِيرَهُ .

أَمَّا مِنْ أَيَّةِ نُقْطَةٍ قَطَعَ هَنِيبَعْلُ نَهرَ ٱلرُّونَ ، فَلا نَدْرِي ، وَلٰكِنْ يُرَجَّحُ أَنَّهَا حَيْثُ ٱلْمِيَاهُ ضَحْلَةٌ نِسْبِيّاً فَوْقَ بَلْدَةِ آرْل . وَلَوْ أَنَّهُ تَحَوَّلَ عَنِ ٱلسَّاحِلِ كَيْ يَتَجَنَّبَ ٱلْمُسْتَنْقَعَاتِ وَٱلْبُحَيْرَاتِ ٱلْمَالِحَةَ بَيْنَ سيت وَمَصَبِّ ٱلرُّون ، لَمَا ٱتَّبَعَ ٱلطَّرِيقَ ٱلأَقْصَرَ فَحَسْبُ ، بَلْ وَلَسَلَكَ ٱلضِّفَّةَ ٱلْغَرْبِيَّةَ لِلرُّونِ ٱلأَصْغَرِ عِوَضاً عَنْ قَطْعِهِ . وَلَوَجَدَ نَفْسَهُ حَيْثُ يَتَفَرَّعُ ٱلرُّونُ .

وَأَيّاً كَانَت نُقْطَةُ ٱجْتِيَازِهِ ، فَإِنَّ ٱلْغَرْبِيِّينَ ٱلْمَحَلِّيِّينَ عَلَى ٱلضِّفَّةِ ٱلأُخْرَى كَانُوا مُصَمِّمِينَ عَلَى صَدِّ ٱلْعُبُورِ . وَرُبَّمَا كَانَ فِي وُسْعِ قَافِلَةٍ مِنْ سَبْعَةٍ وَثَلاثِينَ فِيلاً مُنْدَفِعاً نَحْوَ ٱلْبَرِّ أَنْ تُلْقِيَ ٱلرُّعْبَ فِي قُلُوبِهِمْ . غَيْرَ أَنَّ أَفْيالاً تُحَاوِلُ ٱلنُّزُولَ إِلَى ٱلْبَرِّ فَوْقَ طَوَّافَاتٍ نِصْفُهَا غَارِقٌ تَحْتَ ٱلْمَاءِ : شَيْءٌ آخَرُ مُخْتَلِفٌ . كَمَا أَنَّ ٱلْفُرْسَانَ ٱلنُّومِيدِيِّينَ كَانُوا فِي وَضْعٍ سَيِّءٍ .

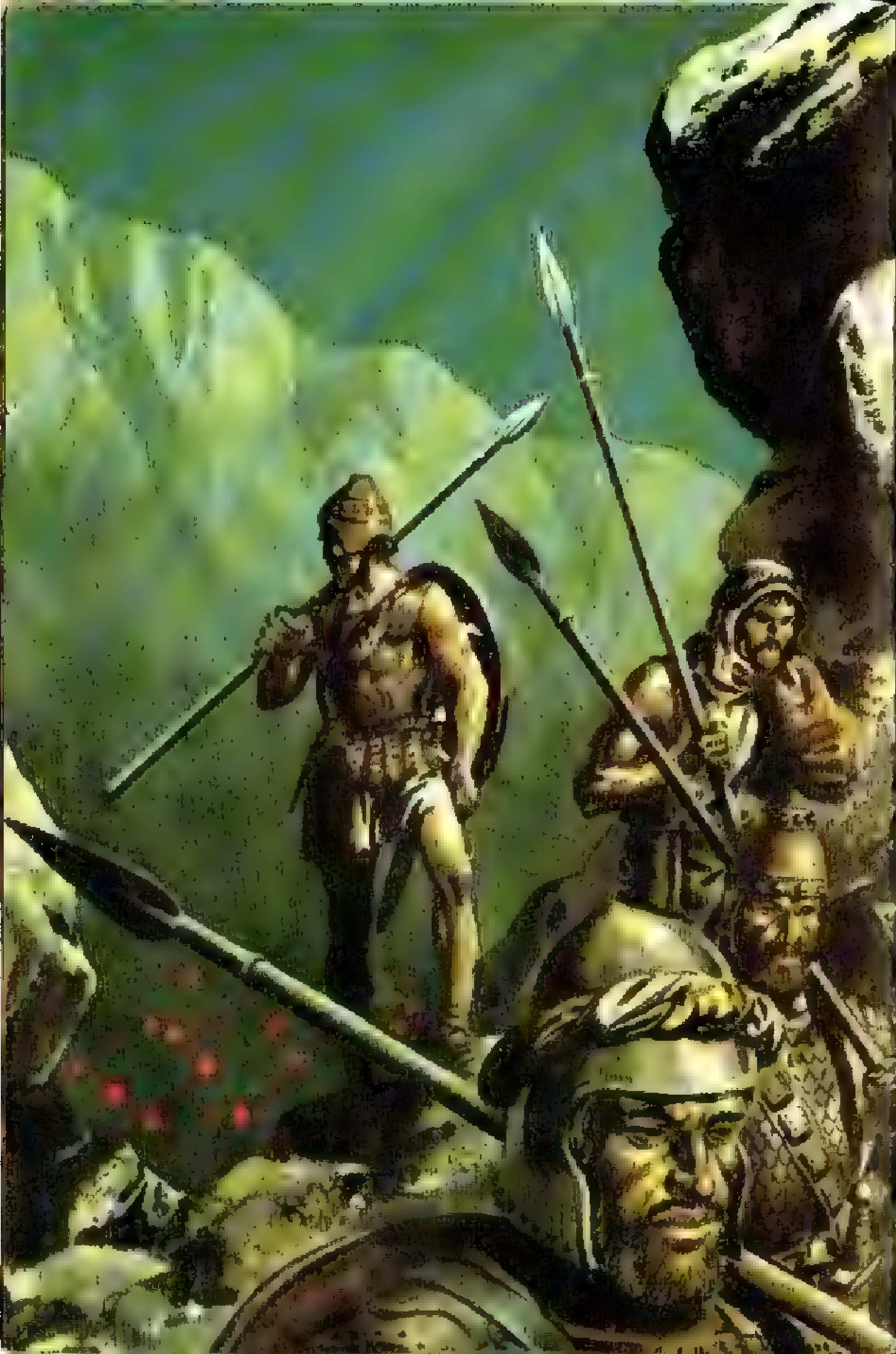


ولم يستخف هنيبعل بصعوبة قطع نهر يزيد عرضه على كيلومتر ونصف الكيلومتر، رغم أن جيشه كان حينذاك قد تناقص عدده إلى نحو ستين ألف رجل. أما السكان على جانبي النهر فقد كانوا من قبيلة فولكيه الغالية المحاربة. غير أن سكان الضفة الغربية آثروا البقاء على الحياد، بل إنهم ساعدوا ببناء الطوفات من جذوع الأشجار عن طريق ربطها معاً. وباعهم هنيبعل بأسعار مغرية قوارب صيد السمك الصغيرة.

وخلال اليومين اللذين قضاهما هنيبعل في هذه التحضيرات الضرورية، كانت قبيلة فولكيه المعادية على الضفة البعيدة من النهر، والتي لم يسمح لأفرادها بقبول أية رشوة، ما زالت تتشدق بما ستلاقيه أي قرطاجي يحاول العبور. لكن هنيبعل لم يترك الأمور تجري في أعنتها. فأوفد عشرة آلاف رجل للعبور من أعلى النهر بعيداً عن أعين الفولكيه. وفجأة وجد الغاليون أنفسهم عرضة لهجوم الألوف من مقاتلين أشداء مسلحين أحسن تسليح يكرون على جناحيهم، في حين كانوا يتوقعون مجابهة رجال مبللين وعلى وشك الغرق وهم يتزلقون من على ضفة النهر. وهنا فر رجال الفولكيه.

وهكذا استطاع هنيبعل العبور دونما معارضة. ولو كانت هناك أدنى معارضة لاستحالت عليه مهمة نقل عرباته الثقيلة مع ثيرانها عبر نهر جار يزيد عرضه على كيلومتر ونصف الكيلومتر. فعوضاً عن الرماح المعادية، استقبلته هو ورجاله أيد صديقة معينة.

وما إن عبر رجاله وحيواناته النهر، حتى توجه هنيبعل شمالاً. وربما كان قد علم أو أنه لم يعلم أن سيبيو قد أنزل فعلاً فيلقاً من رجاله في مرسيليا.



كَانَ شَهْرُ تِشْرِينَ ٱلْأَوَّلِ (أُكْتُوبَر) قَدْ حَلَّ، وَمَضَتْ أَرْبَعَةُ أَشْهُرٍ عَلَى عُبُورِ نَهْرِ إِبْرُو، وَلَا يَزَالُ بَيْنَ هَنِيبَعْلَ وَشَمَالِ إِيطَالْيَا ٱلْحَاجِزُ ٱلطَّبِيعِيُّ ٱلْهَائِلُ وَهُوَ جِبَالُ ٱلْأَلْبِ. وَلَنْ تَلْبَثَ ٱلْمَمَرَّاتُ ٱلْمُمْكِنُ عُبُورُهَا أَنْ تُسَدَّ بِٱلثُّلُوجِ. وَلَمْ يَكُنْ فِي وُسْعِ هَنِيبَعْلَ ٱنْتِظَارُ حُلُولِ ٱلصَّيْفِ، فَحِينَذَاكَ تَكُونُ ٱلْفَيَالِقُ ٱلرُّومَانِيَّةُ تَقُومُ بِحِرَاسَةِ ٱلنُّزُولِ إِلَى ٱلسُّهُولِ. وَكَانَ هَنِيبَعْلُ، شَأْنُهُ شَأْنُ نَابُولِيُون، يَكْسِبُ ٱلْمَعَارِكَ بِٱلْهُجُومِ ٱلْمُبَاغِتِ عَلَى ٱلْعَدُوِّ حِينَ لَا يَتَوَقَّعُهُ. وَلَمْ يَخْطُرْ بِبَالِ ٱلرُّومَانِ أَنَّ فِي ٱسْتِطَاعَةِ جَيْشٍ عُبُورَ مَمَرَّاتِ ٱلْأَلْبِ قَبْلَ أَنْ يُذِيبَ ٱلرَّبِيعُ ثُلُوجَ ٱلشِّتَاءِ.

بَعْدَ أَلْفَيْ سَنَةٍ مِنْ هَنِيبَعْلَ، وَاجَهَ نَابُولِيُونُ هٰذِهِ ٱلظُّرُوفَ نَفْسَهَا. وَكَانَ هُوَ ٱلْآخَرُ يَقُودُ جَيْشًا إِلَى إِيطَالْيَا فَوْقَ جِبَالِ ٱلْأَلْبِ ٱلْمَكْسُوَّةِ بِٱلثُّلُوجِ. أَلْفَا سَنَةٍ لَمْ تُحْدِثْ سِوَى ٱخْتِلَافٍ قَلِيلٍ. كَتَبَ نَابُولِيُونُ يَقُولُ: «إِنَّنَا نُصَارِعُ ٱلْجَلِيدَ وَٱلثَّلْجَ وَٱلْأَنْوَاءَ وَٱلِٱنْهِيَارَاتِ ٱلثَّلْجِيَّةَ!» عَلَى ٱلْأَقَلِّ عَرَفَ نَابُولِيُونُ أَيْنَ كَانَ ٱلْمَمَرُّ، وَأَنَّ ٱلتُّجَّارَ كَانُوا يَسْلُكُونَهُ بِدَوَابِّهِمْ طَوَالَ فَصْلِ ٱلصَّيْفِ.

عَبَرَ نَابُولِيُونُ مَمَرَّ سَانْ بِرْنَارْ ٱلْكَبِير. وَهُوَ أَبْعَدُ شَمَالًا بِكَثِيرٍ مِنْ ذَاكَ ٱلَّذِي عَبَرَهُ هَنِيبَعْلُ إِلَى إِيطَالْيَا. وَلَسْنَا بِحَاجَةٍ ٱلْيَوْمَ إِلَى عُبُورِ هٰذَا ٱلْمَمَرِّ إِلَّا إِذَا كُنَّا نَرْغَبُ فِي ذٰلِكَ: فَإِمَّا أَنْ نَطِيرَ أُلُوفَ ٱلْأَمْتَارِ فَوْقَهُ، أَوْ نُسَافِرَ بِٱلْقِطَارِ تَحْتَهُ وَفِي كِلَا ٱلْحَالَيْنِ نَشْعُرُ بِٱلدِّفْءِ وَٱلرَّاحَةِ. غَيْرَ أَنَّ كُلًّا مِنْ نَابُولِيُونَ وَهَنِيبَعْلَ كَانَ مَقْرُورًا وَمُبْتَلًّا وَجَائِعًا وَمَنْهُوكًا، إِذْ إِنَّ كِلَيْهِمَا كَانَ مُسْتَعِدًّا لِمُشَارَكَةِ رِجَالِهِ كُلَّ هٰذِهِ ٱلْمَشَقَّاتِ، ٱلْأَمْرُ ٱلَّذِي أَكْسَبَهُ تَفَانِيَ جَيْشِهِ.

وَفِي مَمَرٍّ صَعْبٍ ضَيِّقٍ خَدَعَ هَنِيبَعْلُ ٱلْقَبَائِلَ ٱلْمُعَادِيَةَ بِحِيلَةٍ قَدِيمَةٍ جِدًّا، إِذْ تَرَكَ نِيرَانَ ٱلْمُعَسْكَرِ مُشْتَعِلَةً بَعْدَ أَنْ غَادَرَهُ جَيْشُهُ.



لَمْ يَكُنْ هَنيبَعْل يَعرِفُ شَيْئاً عَنْ مَمَرّاتِ جِبالِ الأَلْبِ. كَمَا كَانَتْ قَبْلَ أَلْفَيْ سَنَة. فَكَانَ مُضْطَرّاً إِلى الاعتِمادِ على مُرْشِدينَ قَدَّمَهُمُ الغالِيُّونَ المَحَلِّيُّونَ، وَغالِباً ما كانوا خَوَنَةً وَعِدائِيّينَ.

وَكَثِيراً ما كانَتِ الكُتَلُ الصَّخْرِيَّةُ المُنْهارَةُ مِنَ الأَعالي تَسُدُّ الشِّعابَ والأَخاديدَ الضَّيِّقَةَ. وَيَحْتاجُ مُهَنْدِسُ الطُّرُقِ في أَيّامِنا هذِهِ إِلى جَرّافاتٍ وَمُتَفَجِّراتٍ قَوِيَّةٍ لإِزالَتِها. وَلَمْ يَكُنْ لَدَى هَنيبَعْل شَيْءٌ مِنْ ذلِكَ. وحينَ كانَ مِنَ الضَّروريِّ إِزالَةُ هذِهِ الكُتَلِ لِتَوْسيعِ الدَّرْبِ، كانَ رِجالُهُ يُشْعِلونَ النّارَ تَحْتَها. وَمَتى حَمِيَ الصَّخْرُ صَبّوا عَلَيْهِ النَّبيذَ المُخَلَّلَ البارِدَ. وَبِهذِهِ الطَّريقَةِ يَتَصَدَّعُ أَصْلَبُ الحِجارَةِ ثُمَّ يُقَطَّعُ وَيُنْقَلُ مِنْ مَكانِهِ.

وَالأَفْيالُ تَحْتاجُ إِلى كَمِّيَّةٍ كَبيرَةٍ مِنَ الأَكْلِ، وَكانَتْ أَقَلَّ قُدْرَةً على تَحَمُّلِ الجوعِ مِنَ الرِّجالِ. وَلَمْ تَكُنْ قَدْ أَلِفَتِ البَرْدَ وَهِيَ تَكْرَهُ المَمَرّاتِ الضَّيِّقَةَ المُغَطّاةَ بِالجَليدِ وَالثَّلْجِ. وَكَمْ تَدَهْوَرَ مِنْ عَرَباتٍ وَثيرانٍ مِنْ فَوْقِ الأَخاديدِ الانْحِدارِيَّةِ أَوْ جَرَفَتْها السُّيولُ المُتَدَفِّقَةُ مِنَ الجِبالِ. وَكانَ هُناكَ دائِماً خَطَرُ الانْهِياراتِ الثَّلْجِيَّةِ وَالصُّخورِ المُتَساقِطَةِ. لا شَكَّ أَنَّ هذا اخْتِبارٌ مُريعٌ حَتّى وَلَوْ مِنْ غَيْرِ هَجَماتِ السُّكّانِ المَحَلِّيّينَ العِدائِيّينَ المُباغِتَةِ. فَلا غَرْوَ أَنْ يَتَراءَى لِلرّومانِ أَنَّ الاجْتِيازَ مُسْتَحيلٌ.

لَقَدِ اخْتَلَفَ المُؤَرِّخونَ وَمُصَمِّمو الخَرائِطِ، وَسَيَبْقَوْنَ مُخْتَلِفينَ حَوْلَ الطَّريقِ الَّتي اجْتازَ مِنْها هَنيبَعْل جِبالَ الأَلْبِ. وَيَقولُ الكُتّابُ المُحْدَثونَ أَنَّهُ اتَّبَعَ طَريقَ جَداوِلِ الأَلْبِ مِثْلَ دْروم وَدورانس وَغيل وَكْريسْتيون. أَمّا الشَّيْءُ المُهِمُّ حَقّاً فَهُوَ أَنَّهُ نَجَحَ.



أَمْضَى هَنِيبَعْلُ وَجَحْفَلُهُ الطَّوِيلُ الْهَزِيلُ أَكْثَرَ مِنْ أُسْبُوعَيْنِ فِي اجْتِيَازِ الْأَلْبِ. وَكَانَا أُسْبُوعَيْنِ مِنَ الْبَرْدِ الْقَارِسِ وَالْجُوعِ الْفَتَّاكِ وَالْجُهْدِ الْمُضْنِي الْمُسْتَمِرِّ. وَمَا انْ تَمَّ الْوُصُولُ إِلَى آخِرِ قِمَّةٍ حَتَّى جَمَعَ هَنِيبَعْلُ سَرَايَاهُ الرَّئِيسِيَّةَ وَلَفَتَ نَظَرَ عَنَاصِرِهَا الْمُنْهَكَةِ الْحَائِرَةِ الَّتِي تَسْتَبِدُّ بِهَا الْجُوعُ إِلَى الْوَادِي تَحْتَهَا. وَقَدْ كَتَبَ الْمُؤَرِّخُ الرُّومَانِيُّ لِفِي بَعْدَ مِائَةِ سَنَةٍ يَصِفُ ذَاكَ الْمَشْهَدَ يَقُولُ:

صَاحَ هَنِيبَعْلُ: « أَمَامَكُمْ بِلَادٌ صَدِيقَةٌ. السُّكَّانُ سَيُرَحِّبُونَ بِنَا كَأَصْدِقَاءَ وَحُلَفَاءَ ضِدَّ الرُّومَانِ الَّذِينَ يَمْقُتُونَهُمْ. وَأَنْتُمُ الَّذِينَ قَهَرْتُمْ أَسْوَأَ مَا يُمْكِنُ أَنْ تَفْعَلَهُ الطَّبِيعَةُ، فِي أَصْعَبِ بَلَدٍ فِي الْعَالَمِ، لَا عَلَيْكُمْ أَنْ تَخَافُوا جُيُوشاً مِنْ أَشْبَاهِ الرِّجَالِ. اِتْبَعُونِي! فَالنَّصْرُ مُؤَكَّدٌ! الطَّرِيقُ مَفْتُوحٌ. وَالْغَنِيمَةُ هِيَ رُومَا! »

اِنْتَعَشَتِ الْآمَالُ وَبَدَأَ الْجَيْشُ النُّزُولَ الصَّعْبَ، حَيْثُ كَانَتْ أَيَّةُ زَلَّةٍ أَوْ كَبْوَةٍ تَعْنِي السُّقُوطَ مِنَ ارْتِفَاعِ مِئَاتِ الامتار على الصُّخُورِ. وقد فَقَدَ الْعَدِيدُ مِنَ الْحَيَوَانَاتِ وَالرِّجَالِ، وَلَكِنْ تَمَّ أَخِيراً الْوُصُولُ إِلَى الْأَرْضِ. وَتَمَكَّنَ الْجُنُودُ مِنَ التَّخْيِيمِ، إِنْ لَمْ يَكُنْ فِي رَاحَةٍ، فَعَلَى الْأَقَلِّ فِي ظُرُوفٍ أَفْضَلَ مِنْ تِلْكَ الَّتِي عَرَفُوهَا مُنْذُ أَنْ بَدَأُوا اجْتِيَازَ الْأَلْبِ.

وَبَعْدَ أَلْفَيْ سَنَةٍ مِنْ ذَلِكَ، شَجَّعَ نَابُولِيُونُ رِجَالَهُ الْمُهَلْهَلِينَ الْجِيَاعَ الْمُتَمَرِّدِينَ بِالْإِشَارَةِ إِلَى الْوَادِي الْخَصِيبِ ذَاتِهِ. وَالْيَوْمَ يَقْطَعُ السُّيَّاحُ جِبَالَ الْأَلْبِ نَفْسَهَا طَائِرِينَ عَالِياً فَوْقَ وَادِي الرُّونِ خِلَالَ دَقَائِقَ أَقَلَّ عَدَداً مِنَ الْأَيَّامِ الَّتِي اسْتَغْرَقَهَا هَنِيبَعْلُ. وَيَرَوْنَ تَحْتَهُمُ السَّهْلَ الْخَصِيبَ الَّذِي عَانَتْ جُيُوشُ هَنِيبَعْلَ وَنَابُولِيُونَ الْأَمَرَّيْنِ فِي الْوُصُولِ إِلَيْهِ.



رَكَنَ هَنِيبَعْل إِلى مُساعَدَةِ سُكَّانِ السُّفُوحِ ، وَهُمْ عَدَدٌ مِنْ قَبائِلَ غالِيَّةٍ صَغِيرَةٍ كانَت . عَلى الرَّغْمِ مِنْ كَراهِيَتِها كُلِّها لِرُوما . تَكُنُّ إِحداها لِلقَبائِلِ الأُخرى كَراهِيَةً أَشَدَّ وَأَدْهَى . فَكانَ عَلَيْهِ أَنْ يُقْنِعَها أَنَّ روما سَتَنْهارُ كُلِّيًّا إِذا ما ساعَدَتْهُ هذِهِ القَبائِلُ . وَلكِنَّها كانَتْ تَشُكُّ في ذلِكَ لِسَبَبٍ مَفْهُومٍ . فَقَد الْتَقَتْ تِلكَ القَبائِلُ فِرَقَ روما الحَسَنَةَ التَّسَلُّحِ وَالمُدَرَّبَةَ تَدريباً مُمتازاً . وَحِينَ نَظَرَ القَبَلِيُّونَ إِلى الرِّجالِ المَنهُوكِينَ الجائِعِينَ ، بَدا لَهُم أَنَّهُ يَستَحِيلُ عَلَيْهِم كَسْبُ مَعْرَكَةٍ واحِدَةٍ .

غَيْرَ أَنَّ الإِقْناعَ وَعَرْضَ القُوَّةِ جَعَلا بَعْضَهُمْ يُغَيِّرُ رَأْيَهُ . وَكانَ لا يَزالُ لَدى هَنِيبَعْل أَكْثَرُ مِنْ عِشْرِينَ أَلفَ رَجُلٍ ، بَيْنَهُمُ الفُرْسانُ النُّومِيدِيُّونَ الأَشِدّاءُ وَأَفْيالُهُ . وَكانَ عَلى الغالِيِّينَ أَنْ يَختارُوا بَيْنَ جَيْشٍ هُوَ في دِيارِهِم ، وَالفَيالِقِ الرُّومانِيَّةِ الَّتي قَدْ تَهُبُّ أَوْ لا تَهُبُّ لِنَجْدَتِهِم .

الفَيالِقُ الرُّومانِيَّةُ كانَتْ أَقْرَبَ مِمَّا تَوَقَّعَهُ الغالِيُّونَ أَوْ هَنِيبَعْل . وَعِنْدَما أَخفَقَ سيبيو في مُلاقاةِ الجَيْشِ القَرطاجِيِّ ، أَعادَ جُنودَهُ إِلى السُّفُنِ وَقَفَلَ راجِعاً إِلى رُوما . وَلَمْ يَخْطُرْ بِبالِ مَجْلِسِ الشُّيوخِ الرُّومانِيِّ إِطلاقاً أَنْ يَستَطِيعَ جَيْشٌ اجتِيازَ الأَلْبِ قَبْلَ حُلُولِ الصَّيْفِ ، هذا إِذا استَطاعَ . وَلَمّا عَلِمُوا أَنَّ هَنِيبَعْل أَصْبَحَ في الجِهَةِ الجَنُوبِيَّةِ مِنَ الجِبالِ وَأَنَّهُ يُجَنِّدُ رِجالَ القَبائِلِ الغالِيَّةِ ، أَرسَلُوا سيبيو وَفَيالِقَهُ وَأَمَرُوهُم بِأَنْ يَحُثُّوا الخُطى لِاعتِراضِ سَبِيلِهِ .

وَقَدْ فُوجِئَ هَنِيبَعْل أَيضاً بِسُرعَةِ الرُّومانِ . فَلَمّا عَلِمَ أَنَّ الجَيْشَ الرُّومانِيَّ أَصْبَحَ في بِياسِينْزا ، أَعَدَّ مَكْمَناً عِنْدَ نَهْرِ تْرِيبْيا . وَقَدْ فُوجِئَ الرُّومانُ بِالهُجُومِ المُباغِتِ فَتَمَزَّقَتْ صُفُوفُهُم وَفَرُّوا . وَنَجا القَلِيلُونَ مِنْ مُلاحَقَةِ النُّومِيدِيِّينَ .



خَبَرُ الْقَضَاءِ شِبْهِ الْكَامِلِ عَلَى الْجَيْشِ الرُّومانِيِّ ، حَمَلَ الْغَالِيِّينَ عَلى اتِّخاذِ قَرارٍ . فَانْدَفَعَ الأُلُوفُ مِنَ الْمُتَرَدِّدينَ لِلانْضِمامِ إلى جانِبِ الظّافِرِ ، وَتَمَكَّنَ هَنيبَعْلُ مِنَ الزَّحْفِ جَنوباً مُجْتازاً جِبالَ الأَبِينينِ وَنَهرَ آرْنُو . فَأَعَدَّ الرُّومانُ عَلَى عَجَلٍ جَيْشاً آخَرَ وَبِإِمْرَةِ الْقُنْصُلِ فْلامِينْيُوس احْتَلَّ أَرِيتُّو لاعْتِراضِ مَسِيرَةِ هَنيبَعْلَ نَحْوَ رُوما .

تابَعَ هَنيبَعْلُ زَحْفَهُ بِاتِّجاهِ الْجَنوبِ الشَّرْقِيِّ مُجْتازاً أَرِيتّو قَبْلَ أَنْ يَتَمَكَّنَ فْلامِينْيُوس مِنْ إِرْغامِهِ عَلَى الْقِتالِ ، الأَمْرُ الَّذي أَفْسَدَ مُخَطَّطاتِ الرُّومانِ . أَمَّا فْلامِينْيُوس ، إِدْراكاً مِنْهُ لِما كانَ مُقَدَّراً لَهُ أَنْ يُواجِهَهُ مِن لَوْمٍ عَنيفٍ وَمِن احْتِقارِ الْجَيْشِ لَهُ ، فَقَدْ سارَعَ إلى تَعَقُّبِ الْقَرْطاجِيِّينَ الَّذينَ أَصْبَحوا عَلَى الشّاطِئِ الشَّمالِيِّ لِبُحَيْرَةِ تْراسِيمِينْ .

لا بُدَّ أَنَّ الْجانِبَ الشَّمالِيَّ مِنَ الْبُحَيْرَةِ كانَ أَقْرَبَ إلى التِّلالِ مِمّا هُوَ الْيَوْمَ . فَكُلُّ الرِّواياتِ تُؤَكِّدُ أَنَّهُ عِنْدَما لَحِقَ فْلامِينْيُوس بِجَحْفَلِ هَنيبَعْلَ الطَّويلِ . كانَ الضَّبابُ يَحْجُبُ الْمُنْحَدَراتِ الْحَرَجِيَّةَ عَلَى يَسارِهِ . أَمّا الْيَوْمَ فَإِنَّها تَبْعُدُ حَوالَى كيلومِترٍ وَنِصْفِ الكيلومِترِ . وَيَبْدو أَنَّ خَطَرَ الْوُقوعِ في مَكْمَنٍ لَمْ يَخْطُرْ بِبالِ الْقائِدِ الرُّومانِيِّ ، وَكانَ في اعْتِقادِهِ أَنَّ الْقَرْطاجِيِّينَ ما زالوا أَمامَهُ .

لَقَدْ كانَ مُخْطِئاً ، فَفَجْأَةً تَصَعَّدَتْ مِنْ عَلَى شِمالِهِ صَيْحاتٌ مُرْعِبَةٌ وَقَعْقَعَةُ السُّيوفِ عَلَى الدُّروعِ الْمَعْدِنِيَّةِ وَقَدْ قَطَعَ هُجومُ النّوميدِيِّينَ كُلَّ احْتِمالٍ لِلتَّراجُعِ . كَما أَنَّ وُجودَ الْبُحَيْرَةِ عَلَى الْجَناحِ الأَيْمَنِ مَنَعَ تَشْكيلَ الْفَيْلَقِ الرُّومانِيِّ . وَمَرَّةً أُخْرى خَدَعَ هَنيبَعْلُ الْجَيْشَ الرُّومانِيَّ . وربما كانَ فْلامِينْيُوس مَحْظوظاً لأَنَّهُ لاقَى في بَدْءِ الْمَعْرَكَةِ مَصْرَعَهُ .



كادَ الخوفُ يُصيبُ الرُّومانَ بالشَّلَلِ فقدْ تضاءَلَ جيشُهُم إلى عددٍ قليلٍ منَ الهاربينَ، وقُتِلَ قائدُهُم، والطَّريقُ إلى روما باتَتْ مفتوحةً! والَّذينَ نجَوا منْ مُلاحقةِ النُّوميديِّينَ وتمكَّنوا منَ العودةِ إلى روما، أشاعوا بينَ النَّاسِ قِصصاً كئيبةً. إنَّ تصوُّرَ وُقوعِ حضارتِهِم كلِّها تحتَ رحمةِ متوحِّشينَ، وسَوْقِ نسائِهِم وأطفالِهِم إلى العبوديَّةِ، أشاعَ الرُّعبَ بينَ المواطنينَ. فقدْ كانوا يعتقدونَ دائماً أنَّ فيالقَ روما العسكريَّةَ لا تُقهَرُ، وهيَ درعٌ يشعرونَ وراءَها بالأمانِ. غيرَ أنَّ هذهِ الدِّرعَ لمْ تعُدْ موجودةً.

وازدحمتِ الطُّرقُ المؤدِّيةُ إلى الجنوبِ بجموعِ الخائفينَ والمشرَّدينَ والقلِقينَ، يهربونَ منْ حاضرٍ خطِرٍ إلى مستقبلٍ مجهولٍ. فإنْ لمْ يُعثرْ على زعيمٍ قادرٍ على تهدئةِ الشَّعبِ وتشجيعِهِ، كانَتْ نهايةُ روما محتومةً.

وفي هذهِ المرحلةِ، كما يحدثُ غالباً في التَّاريخِ، أنجبتِ السَّاعةُ الرَّجُلَ المطلوبَ.

وكانَ فابيوس الرَّجُلَ الَّذي عُيِّنَ في تلكَ الحالةِ الطَّارئةِ. وقدِ اشتهرَ بكونِهِ الجنرالَ الَّذي أنقذَ أخيراً الجمهوريَّةَ الرُّومانيَّةَ منْ هنيبعلَ الَّذي خسرَ المعركةَ الوحيدةَ الَّتي تقابلا فيها. ومنِ اسمِ فابيوس اشتُقَّتْ في الإنكليزيَّةِ صفةٌ تعني الشَّخصَ الَّذي يظفرُ بفضلِ التَّريُّثِ. وقدْ أخطأَ هنيبعلُ بتخلُّفِهِ عنِ الزَّحفِ مباشرةً على روما يومَ كانتِ الطَّريقُ مفتوحةً أمامَهُ، إذ تحوَّلَ شرقاً على كُرْهٍ منْ قائدِ فرسانِهِ الَّذي قالَ لهُ معاتباً: «أنتَ تعرفُ كيفَ تكسبُ المعاركَ، ولكنَّكَ لا تعرفُ كيفَ تفيدُ منِ انتصاراتِكَ». لمْ يكُنِ القائدُ على صوابٍ، فجيشُ هنيبعلَ لمْ يكُنْ مجهَّزاً لمحاصرةِ مدينةٍ.



بَعْدَ ثَلاثِ سَنَواتٍ مِنْ كَارِثَةِ تْرِيبِيَا ، تَمَكَّنَ ٱلرُّومانُ بِفَضْلِ فَابْيُوس ، مِنْ حَشْدِ جَيْشٍ قِوَامُهُ ٨٠٠٠٠ رَجُلٍ وَتَدْرِيبِهِ. وَكَانَتِ ٱلفَصَائِلُ ٱلَّتِي يُرْسِلُهَا هَنِيبَعْلُ لِجَمْعِ ٱلعَلَفِ تَتَعَرَّضُ لِلْهُجُومِ بِٱسْتِمْرَارٍ. وَبِما أَنَّ ٱلرُّومانَ تَمَكَّنُوا حِينَذاكَ مِنَ ٱلسَّيْطَرَةِ عَلَى ٱلبَحْرِ، لَمْ يَعُدْ بِٱسْتِطَاعَةِ ٱلأَمْدادِ ٱلوُصُولُ إِلى هَنِيبَعْلَ مِنْ قَرْطَاجَةَ. أُضِفْ إِلى هٰذا أَنَّ ٱلقَبَائِلَ في جَنُوبِ إِيطالِيا وَٱلَّتِي كَانَ هَنِيبَعْلُ يَأْمَلُ في تَجْنِيدِها ، رَفَضَتِ ٱلٱنْقِلابَ عَلَى رُوما. لَقَدْ أُصِيبَتْ بِلادُهُمْ بِٱلبَوارِ. فَإِذا كَانَ بِوُسْعِ فَابْيُوس ٱلٱنْتِظارُ، فَهُم مِثْلُهُ مُنْتَظِرُونَ.

في سَنَةِ ٢١٦ ق . م. أَقْدَمَ هَنِيبَعْلُ عَلى خُطْوَةٍ مُفَاجِئَةٍ حاسِمَةٍ. فَقَدْ تَعِبَ مِنْ مُحَاوَلَةِ حَمْلِ فَابْيُوس عَلَى ٱلقِتالِ. وَكَانَتْ مُؤَنُهُ قَدْ نَضَبَتْ تَقْرِيباً ، فَٱسْتَوْلَى عَلَى ٱلحِصْنِ ٱلرُّومَانِيِّ وَٱلمُسْتَوْدَعِ ٱلغَنِيِّ في كَانِّيه. وَهٰذِهِ خُطْوَةٌ لا يُمْكِنُ إِغْفالُها. فَكَانَ لا بُدَّ مِنْ تَدْمِيرِ هَنِيبَعْلَ وَجَيْشِهِ.

وَلَوْ كَانَ في إِمْرَةِ فابْيُوس ٱلفَيالِقُ ٱلأَرْبَعَةُ ٱلَّتِي تُشَكِّلُ ٱلجَيْشَ ٱلرُّومانِيَّ ، لَمَا وَقَعَتْ كَارِثَةُ كَانِّيه. غَيْرَ أَنَّ فابيوس ٱضْطُرَّ إِلى ٱلعَوْدَةِ إِلى رُوما ، وَبَقِيَ وَراءَهُ قائِدانِ رُومانِيَّانِ ٱخْتَلَفا عَلَى طَرِيقَةِ خَوْضِ ٱلمَعْرَكَةِ.

فَٱنْتَظَرَ هَنِيبَعْلُ مَعَ مُشَاتِهِ بَيْنَ مَجْمُوعَتَيْنِ مِنَ ٱلفُرْسَانِ. وَقَدْ هَاجَمَ ٱلرُّومانُ ٱلوَسَطَ ، وَبِناءً عَلَى أَوامِرِ هَنِيبَعْلَ تَراجَعَ ٱلمُشاةُ. وَلَمْ يُدْرِكِ ٱلرُّومانُ أَنَّ ذٰلِكَ كَانَ فَخّاً آخَرَ مِنْ فِخاخِ هَنِيبَعْلَ ٱلعَسْكَرِيَّةِ. فَسُرْعَانَ ما تَجَمَّعُوا مَعاً وَتَوَغَّلُوا أَبْعَدَ فَأَبْعَدَ بَيْنَ ٱلفُرْسَانِ. وَعِنْدَ إِعْطاءِ ٱلإِشارَةِ ٱلمُتَّفَقِ عَلَيْهَا ٱنْدَفَعَ ٱلفُرْسانُ ٱلنُّومِيدِيُّونَ. فَتَرَصَّتْ صُفُوفُ ٱلرُّومانِ رَصّاً شَدِيداً حَتَّى إِنَّهُ لَمْ يَعُدْ لَهُم مَجَالٌ لِٱسْتِعْمَالِ أَسْلِحَتِهِم. فَلَم يَنْجُ مِنْهُم سِوى ٱلقَلِيلِ.

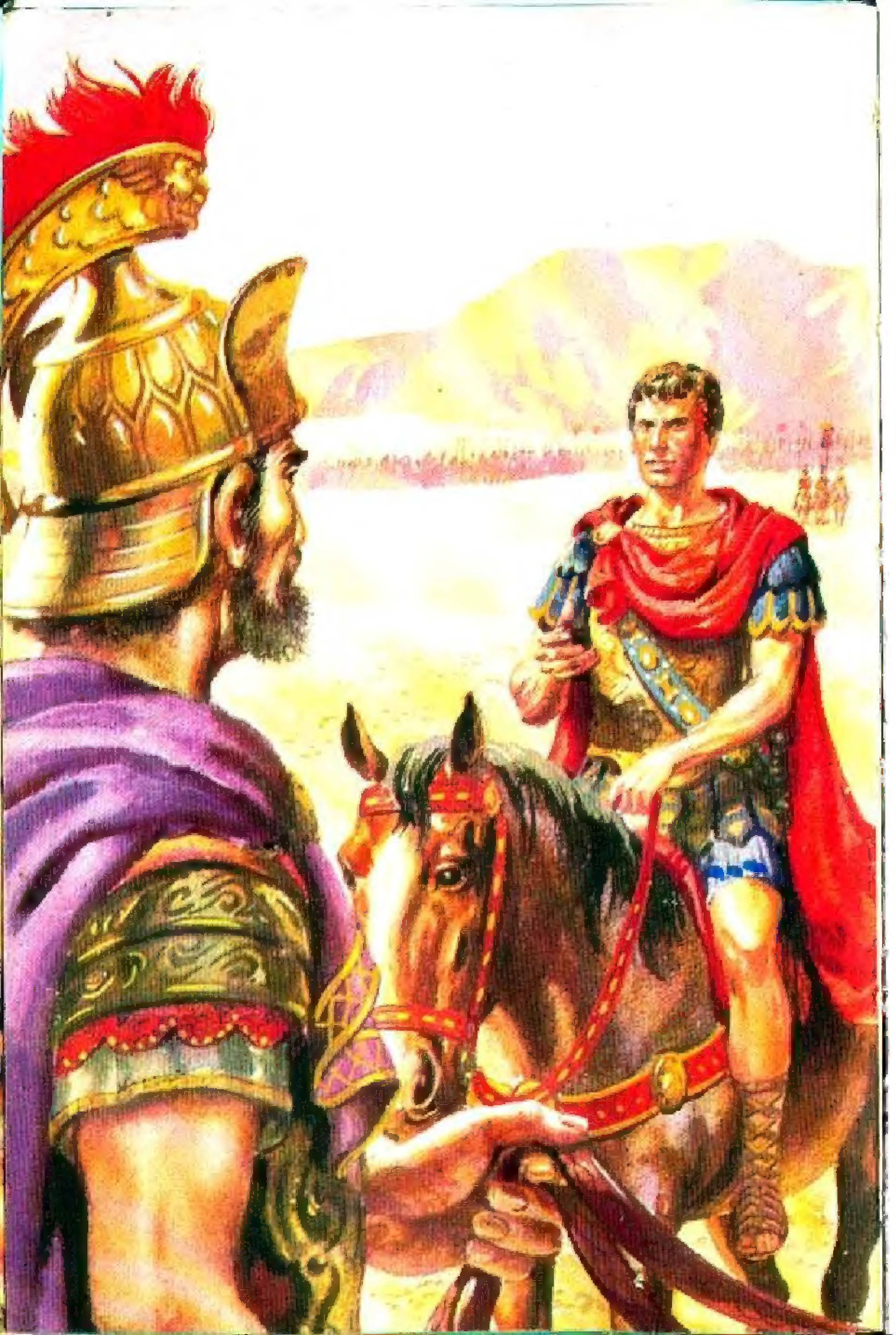


كَانَتْ كَانيه كَارِثَةً . وَبَاتَ مَصِيرُ رُوما مَرَّةً أُخْرَى فِي يَدِ هَنِيبَعْلَ . وَلٰكِنْ كَمَا حَدَثَ غَيْرَ مَرَّةٍ فِي تَارِيخِ ٱلْعَالَمِ . أَفْسَدَ الانْتِصَارَاتِ فِي مَيْدَانِ الْقِتَالِ ، ٱلسَّاسَةُ ٱلْحَاقِدُونَ فِي ٱلْوَطَنِ . وَلَمْ يَصِلْ إِلَى هَنِيبَعْلَ مِنْ قَرْطَاجَة سِوَى عَدَدٍ قَلِيلٍ مِنَ الْفِيَلَةِ وَبَعْضِ التَّعْزِيزَاتِ ٱلنُّومِيدِيَّةِ . وَلٰكِنَّهُ حَافَظَ لِبِضْعِ سَنَوَاتٍ بَعْدَ ذٰلِكَ عَلَى بَقَاءِ جَيْشِهِ يَتَنَقَّلُ فِي أَنْحَاءِ شِبْهِ ٱلْجَزِيرَةِ الإِيطَالِيَّةِ يَكْسِبُ مَعَارِكَ صَغِيرَةً . وَلٰكِنَّهُ لَمْ يَعُدْ إِطْلَاقاً يُشَكِّلُ تَهْدِيداً لِرُوما .

وَٱسْتَرَدَّتْ رُوما أَنْفَاسَهَا إِلَى حَدٍّ يُمَكِّنُهَا مِنْ إِرْسَالِ فَيْلَقٍ إِلَى إِسْبَانيا وَإِفْرِيقِيا . أَمَّا مُرْتَزِقَةُ هَنِيبَعْلَ فَقَدْ تَعِبُوا مِنَ ٱلْحَرْبِ . وَكَانُوا يَهْجُرُونَهُ بِأَعْدَادٍ مُتَزَايِدَةٍ . وَلَمْ تَعُدْ تَأْتِيهِ تَعْزِيزَاتٌ . وَلَمْ يَعُدْ فِي مَقْدُورِ الأَرْيَافِ ٱلَّتِي خَرَّبَهَا جُنُودُه أَنْ تُمِدَّهُ بِغِذَاءٍ يَكْفِي رِجَالَهُ أَوْ عَلَفٍ لِأَفْيَالِهِ . لَقَدْ كَانَ لَهُ وَلِرِجَالِهِ لِفَتْرَةٍ مُسْتَقَرٌّ هَنِيءٌ فِي مُقَاطَعَةِ كَابُوا . إِلَّا أَنَّ ٱلرُّومَانَ مَا لَبِثُوا أَنِ ٱسْتَرَدُّوا تِلْكَ المقاطعة .

وَهٰكَذَا ٱزْدَادَتْ خَيْبَةُ أَمَلِ هَنِيبَعْلَ . وَفِي إِحْدَى ٱلْمَرَّاتِ رَكِبَ حِصَانَهُ وَٱقْتَرَبَ مِنْ أَسْوَارِ رُومَا وَرَمَى بِرُمْحٍ إِلَى دَاخِلِ المدينة كَعَلَامَةِ تَحَدٍّ . أَصْبَحَ هَنِيبَعْلُ الآنَ فِي مَوْقِعِ دِفَاعٍ . وَكَانَ دِفَاعاً شَدِيداً وَعُدْوَانِيّاً .

فِي هٰذِهِ الأَثْنَاءِ كَانَ هَسْدْرُوبَال ، أَخُو هَنِيبَعْلَ مُحْتَفِظاً بِإِسْبَانيا . وَنَجَاحُهُ هُنَاكَ يَعْنِي أَنَّهُ كَانَ حُرّاً لِلزَّحْفِ وَمُسَاعَدَةِ ٱلْقَرْطَاجِيِّينَ ٱلْمَنْهُوكِينَ . وَبَعْدَ أَنِ ٱجْتَازَ هَسْدْرُوبَال الأَلْبَ مُلَاقِياً مُقَاوَمَةً بَسِيطَةً بَعْدَ تِسْعِ سَنَوَاتٍ مِنْ مُرُورِ أَخِيهِ . هُزِمَ وَقُتِلَ فِي شَمَالِ إِيطَالِيا . وَأَلْقَتْ دَوْرِيَّةٌ رُومَانِيَّةٌ بِرَأْسِهِ بِٱحْتِقَارٍ فِي مُعَسْكَرِ هَنِيبَعْل .



لَمْ يَبْقَ لِهَنِيبَعْلَ كَبِيرُ أَمَلٍ فِي دَحْرِ رُومَا. فَقَدْ نَجَحَ سِيبِيُو الأَصْغَرُ مِنْهُ سِنًّا فِي كَسْبِ مَعَارِكِهِ فِي إِسْبَانِيَا، كَمَا أَنَّهُ عَبَرَ إِلَى إِفْرِيقْيَا. فَبَاتَتْ قَرْطَاجَةُ فِي خَطَرٍ، بَلْ إِنَّهَا وَافَقَتْ عَلَى التَّفَاوُضِ عَلَى الصُّلْحِ عِنْدَمَا عَادَ هَنِيبَعْلُ فِي عَامِ ٢٠٣ ق. م. غَيْرَ أَنَّ وُجُودَ القَائِدِ الَّذِي طَالَمَا انْتَصَرَ عَلَى فَيَالِقِ رُومَا بَعَثَ الأَمَلَ فِي قُلُوبِ القَرْطَاجِيِّينَ الَّذِينَ اسْتَجْمَعُوا شَجَاعَتَهُمْ مُجَدَّداً وَاسْتَعَدُّوا لِلنِّزَالِ.

عِنْدَئِذٍ كَانَ عَلَى هَنِيبَعْلَ أَنْ يُوَاجِهَ غَضْبَةَ الفُرْسَانِ الَّذِينَ طَالَمَا اعْتَمَدَ عَلَى قُدُرَاتِهِمُ القِتَالِيَّةِ الوَحْشِيَّةِ فِي انْتِصَارَاتِهِ. فَقَدِ انْضَمَّ المَلِكُ النُّومِيدِيُّ مَاسِينِسَا إِلَى سِيبِيُو بِأَرْبَعَةِ آلَافٍ مِنَ النُّومِيدِيِّينَ المُرْعِبِينَ الَّذِينَ رَأَوْا الآنَ فُرْصَةً لِنَهْبِ مَدِينَةِ قَرْطَاجَةَ الغَنِيَّةِ غِنًى فَاحِشاً.

أَدْرَكَ هَنِيبَعْلُ الخَطَرَ. فَتَقَدَّمَ إِلَى مَوْقِعٍ اسْمُهُ زَامَا وَأَوْفَدَ رُسُلاً إِلَى سِيبِيُو يَعْرِضُ عَلَيْهِ اللِّقَاءَ. فَالْتَقَيَا، وَقَالَ هَنِيبَعْلُ: إِنَّ السَّلَامَ هُوَ لِخَيْرِ الطَّرَفَيْنِ. فَرَفَضَ سِيبِيُو السَّلَامَ، وَخَيَّرَ هَنِيبَعْلَ بَيْنَ الاسْتِسْلَامِ أَوِ القِتَالِ.

بَدَأَتْ مَعْرَكَةُ زَامَا بِهَجْمَةٍ شَرِسَةٍ مِنْ ثَمَانِينَ فِيلاً أَوْ يَزِيدُ، دَفَعَهَا هَنِيبَعْلُ آمِلاً أَنْ يُفَرِّقَ بِهَا الفَيَالِقَ الرُّومَانِيَّةَ. إِلَّا أَنَّ الخُطَّةَ أَخْفَقَتْ. فَقَدْ أَفْزَعَ الرُّومَانُ الفِيَلَةَ بِقَرْعِ الصُّنُوجِ قَرْعاً صَاخِباً وَبِإِطْلَاقِ نَفِيرِ الأَبْوَاقِ إِطْلَاقاً نَاشِزاً عَالِياً. فَإِذَا بِالفِيَلَةِ تَعُودُ مُجْفِلَةً إِلَى خُطُوطِ القَرْطَاجِيِّينَ. وَوَاجَهَ جُنُودُ هَنِيبَعْلَ المُحَنَّكُونَ مُقَاوَمَةً قَاسِيَةً مِنَ الفَيَالِقِ المُنْتَقِمَةِ، وَكَانَ مَصِيرُ المَعْرَكَةِ لِفَتْرَةٍ مِنَ الزَّمَنِ مَوْضِعَ شَكٍّ. وَفِي اللَّحْظَةِ الحَرِجَةِ هَجَمَ نُومِيدِيُّو المَلِكِ مَاسِينِسَا مِنْ جِهَةِ الجَنَاحِ. وَكَانَ ذَلِكَ تَكْتِيكاً اتَّبَعَهُ هَنِيبَعْلُ فِي انْتِصَارَاتِهِ العَدِيدَةِ. وَلَكِنْ جَاءَ ضِدَّهُ هَذِهِ المَرَّةَ.



شُرُوطُ الصّلحِ كانَتْ مُذِلَّةً لِقَرْطاجَةَ فَلَمْ يُسمَحْ لِهٰذِهِ ٱلمَدِينَةِ - الدَّوْلَةِ حَتَّى بِالْبَقاءِ والمتاجرةِ. إلا لِأَنَّ أَحَدَ شُروطِ الصُّلْحِ كَانَ دَفْعَ عَشَرَةِ آلافِ مِثْقالٍ مِنَ الفِضَّةِ عَلَى خَمْسِينَ قِسْطاً. فَلَوْ نَهَبَ ٱلرُّومانُ قَرْطَاجَةَ وَأَحْرَقُوهَا لَمَا كَانَ بِوُسْعِهَا أَنْ تَدْفَعَ ٱلمَالَ ٱلذي كانت روما تَحْتَاجُهُ.

وَرُبَّمَا قِيلَ إِنَّ هَنِيبَعْلَ خَرَّبَ قَرْطَاجة إِلا أَنَّ ٱلمُواطِنِينَ أَقَرُّوا بِأَنَّهُ عَبْقَرِيٌّ. فَلِسَبْعِ سَنَواتٍ سَاسَ شُؤُونَ الرَّعِيَّةِ عَلَى نَحْوٍ جَيِّدٍ شَعَرَ الرُّومانُ إِزاءَهُ بِٱلخَوْفِ مِنَ ٱلازْدِهَارِ ٱلمُطَّرِدِ لِمُنافِسَتِهِم ٱلوَحِيدَةِ ٱلخَطِرَةِ. وَٱعْتَقَدُوا عَنْ حَقٍّ أَنَّهُ لَوْلا هَنِيبَعْلُ لَمَا اسْتَرَدَّتْ قَرْطَاجة أَنْفَاسَها. فَلَفَّقُوا تُهْمَةً بِأَنَّ جِزْيَةَ ٱلحَرْبِ لَمْ تُدْفَعْ كامِلَةً. وَطَالَبُوا بِاعْتِقالِهِ وَتَسْلِيمِهِ. وكَانَ هَنِيبَعْلُ يَعْلَمُ أَنَّ مَجْلِسَ ٱلشُّيُوخِ ٱلقَرْطَاجِيَّ مُؤَلَّفٌ مِنْ رِجَالٍ ضَيِّقِي ٱلأُفُقِ، يَحْسُدُونَ رَجُلاً عَبْقَرِيّاً.

تَرَكَ قَرْطَاجَةَ وَأَبْحَرَ إلى سُوريا حَيْثُ كانَ ٱلمَلِكُ أَنْطِيوخُس في حَرْبٍ مَعَ رُوما. وَفي بَادِئِ ٱلأَمْرِ سُرَّ أَنْطِيوخُس كَثيراً بِأَنْ يَظْفَرَ بِمَشُورَةِ هَنِيبَعْلَ ٱلعَظِيمِ. غَيْرَ أَنَّ ٱلحَظَّ خانَهُ. فَقَدْ دُمِّرَ أُسْطُولُهُ. وهُزِمَ ٱلجَيْشُ ٱلَّذي لَمْ يَثِقْ بِهِ هَنِيبَعْلُ كَثيراً. وَخَامَرَ هَنِيبَعْلَ شَكٌّ في أَنَّ ٱلرُّومانَ سَيُطالِبُونَ مُجَدَّداً بِاعْتِقالِهِ مُقابِلَ مُعاهَدَةِ صُلْحٍ وَأَنَّ أَنْطِيوخُس سَيُوافِقُ.

فَغَادَرَ هَنِيبَعْلُ ٱلبِلادَ ٱلجَاحِدَةَ ٱلثَّانِيَةَ وَفَرَّ إلى بِيتِينيا، وَهِيَ دَوْلَةٌ أُخْرَى كانت في حَرْبٍ مَعَ رُوما. وَبِخُدْعَةٍ مِنْ خِدَعِهِ هَزَمَ أُسْطُولاً رُومانِيّاً بِأَنْ أَلْقَى عَلَى ظَهْرِ سُفُنِ ٱلرُّومانِ جِراراً مَلأَى بِٱلأَفاعِي ٱلسَّامَّةِ. وكَانَ هَنِيبَعْلُ آنَذاكَ قَدْ جَاوَزَ ٱلسِّتِّينَ. وَأَدْرَكَ أَنَّ رُوما لَنْ تَكُفَّ عَنِ ٱلمُطالَبَةِ بِمَوْتِهِ. فَتَنَاوَلَ ٱلسُّمَّ وَخَدَعَهُمْ لِلْمَرَّةِ ٱلأَخِيرَةِ.

السلسلة التاريخية

١ – جان دارك

٢ – ماركو بولو

٣ – الكابتن سكوت

٤ – نابوليون

٥ – كليوباترا ومصر القديمة

٦ – تشارلز ديكنز

٧ – كريستوفر كولومبس

٨ – الاسكندر الأكبر

٩ – الحضارات الكبرى : مصر

١٠ – الحضارات الكبرى : اليونان

١١ – فلورنس نايتنغيل

١٢ – هنيبعل

١٣ – الحضارات الكبرى : الفايكنجز

١٤ – الحضارات الكبرى : روما

١٥ – الحضارات الكبرى : كريت

Series 561/Arabic
